موسوعة المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء السادس

مركز الشرق الأوسط الثقافي

موسوعة
المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء السادس

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

Middle East Cultural Center
For Printing, Publishing, Translating & Distributing

الإدارة العامة:

بيروت - الحدث، هاتف: ٨٨٨ - ٤٦١٧٧٧ - ٥ - ٩٦١ - فاكس: ٤٦١٩٩٩ - ٥ - ٩٦١ - خليوي: ٦٤٠٤٩٠ - ٣ - ٩٦١
مصر - الدقي، هاتف: ٠٠٢٠٢٣٣٦٥١٥٢ - خليوي: ٠٠٢٠١٢٦٥١٠٥٦١
سوريا - دمشق، هاتف: ٠٣٠ - ٠٢٠ - ٠٠٩٦٣١١٤٦٤٤٠١٠ - خليوي: ٩٦٣٩٤٩٩٧٧٦٤

General Management:

Beirut - Hadath, Tel: 961-5-461777 - 888 - Fax: 961-5-461999, Mobile: 961-3-640490
Cairo - Dokki, 002023365152 - Mobile: 0020126510561
Syria - Damascus, 00963114644010 - 020 - 030 - Mobile: 96394997764
Web site: www.lccpublishers.tk E-mail: lcc_ pub @ yahoo.com

حرف الكاف

كاترين غان(*)
(Catherine Gann)
(-   )

هي إحدى موظفات المخابرات البريطانية التي أدينت بانتهاك أسرار الدولة، حيث كانت امرأتان في لندن جعلتا العالم أخيراً يعيد فحص ملفات حرب ستظل دائماً أرضاً خصبة لتأملات المؤرخين والمحللين والاقتصاديين وخبراء الاستراتيجية ورجال عصابات المافيا. ملفات حرب العراق استعصت حتى الآن على كل محاولات إغلاقها أو تجاوزها. لم تكن في الحرب فقط صواريخ ودبابات وقنابل عنقودية. الحرب نفسها تؤكد يوماً بعد يوم أنها بذاتها حرب عنقودية، تتناسل على مدار الساعة حروباً أخرى سياسية وإعلامية.

امرأتان في لندن... إحداهما شابة في التاسعة والعشرين من عمرها متخصصة في الترجمة من اللغة الصينية، والأخرى وزيرة سابقة وعضو في مجلس العموم عن حزب العمال الحاكم. الأولى فجرت قنبلة مدوية قبل سنة [2003] وهي تعرف مسبقاً أن مصيرها قد يكون السجن لسنوات بتهمة غليظة هي إفشاء أسرار رسمية لأجهزة وعلاقات

(*) **المرجع**: محمود عوض في مقال له بجريدة «الحياة» في 16/ 3/ 2004. كما تطرق كتاب هانس بليكس ص9 بعنوان «مهمة في العراق» إلى هذه المسألة أيضاً.

أكثر سرية. وبعدما اعتقلتها السلطات البريطانية في الثالث من شهر آذار / مارس 2003 تراجعت أخيراً عن تقديمها إلى المحاكمة حتى لا ينكشف المزيد من الأسرار ويتعرض للفحص المزيد من العلاقات المريبة التي تشابكت معاً لغزو العراق واحتلاله كمقدمة لتنفيذ جدول أعمال أوسع بامتداد «الشرق الأوسط الكبير». الثانية هي كلير شورت التي استقالت في شهر نيسان (ابريل) 2003 من عملها كوزيرة للتنمية في حكومة توني بلير احتجاجاً على مشاركة بريطانيا في حرب العراق. وفي حوار إذاعي عابر ألقت بقنبلة شديدة الانفجار تطال شظاياها الحياة الدولية المعاصرة وما يسمى «المجتمع الدولي» الآخر ـ المجتمع الحقيقي ـ، وليس الذي يعرفه الناس من خلال الكاميرات وشاشات التلفزيون.

امرأتان في لندن ربما لم تدركا من البداية «عش الدبابير» الذي كشفتا عنه والوحوش الكاسرة التي يمكن أن تنطلق منه. كشفت المرأة الأولى عن طلب استخباراتي أميركي موجه إلى جهاز استخباراتي بريطاني يطلب المساعدة في التجسس على وفود ست من الدول الصغيرة الأعضاء في مجلس الأمن الدولي. في تلك الأسابيع العاصفة التي سبقت الذهاب فعلاً إلى الحرب في 30/ 3/ 2003. المرأة الثانية كشفت أن العمليات التجسسية، السرية وغير المشروعة، لم تشمل فقط وفود الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، وإنما أيضاً كل أحاديث واتصالات ومقابلات الأمين العام للأمم المتحدة نفسه كوفي أنان. لقد انفتح إذن «صندوق باندورا» فتلاحقت الوقائع والشهادات... من بطرس غالي الأمين العام السابق للأمم المتحدة إلى ريتشارد باتلر الذي رأس لجان التفتيش على الأسلحة في العراق ما بين 1997 و1999 إلى هانز بليكس الرئيس التالي الذي انتهى

تعاقده مع الأمم المتحدة في حزيران (يونيو) 2003.

امرأتان في لندن جاءت متابعتي لقنابلهما العنقودية لأسباب كثيرة. . . [يقول محمود عوض]، منها الشخصي ومنها الموضوعي. في الجانب الشخصي أعرف مسبقاً بعض ما تتحدثان عنه وإن لم تسمح لي الظروف مطلقاً بالحصول على توثيق نهائي. في سنوات سابقة ضمن حياتي الصحافية المبكرة كنت أسافر إلى نيويورك لأبقى فيها أسابيع وأشهراً في كل مرة؛ متابعاً المداولات السنوية عن «أزمة الشرق الأوسط». . . ابتداء من القرار 242 الشهير فصاعداً.

كنت ألاحظ أن المجتمع الدولي الذي يلخِّصه مبنى الأمم المتحدة في نيويورك يجمع بين النقيضين: بالغ الانفتاح وأيضاً بالغ الحذر والتحوط. في البداية لم أستوعب ذلك التناقض فتلك مرحلة من العمر والخبرة تتسع للونين اثنين فقط هما الأبيض والأسود. ولا تدرك أن العالم الحقيقي ـ عالم الوحوش الكاسرة ـ إنما يوجد في المنطقة الثالثة. منطقة اللون الرمادي. في تلك المنطقة لسنا أمام حق يواجه باطلاً، أو ظلم يطلب عدلاً. نحن فقط أمام قوة كاسحة مستعدة عند اللزوم لسحق من يقف في طريقها طالما أن خطيئته هي أنه الأضعف أو الأقل تقدماً وسلاحاً وتكنولوجياً.

في حينه تلاحقت أمامي إشارات متناغمة، سواء عندما كان محمد عوض القوني هو سفير مصر لدى الأمم المتحدة، أو عندما خلفه الدكتور محمد حسن الزيات في المنصب نفسه. بطبيعة العمل الصحافي كنت أحتاج بين وقت وآخر إلى استكمال بعض النقص أو معرفة بعض الخلفيات لما يجري داخل قاعة مجلس الأمن الدولي وخارجها. كلا الرجلين كانا مهذبين دائماً. إنما الأول ـ في وقته ـ لم

يكن يرتاح للحديث إلا في منزله. خارج مبنى الأمم المتحدة. أما في حال الدكتور محمد حسن الزيات فكان يستمع إلى تساؤلاتي بكل ابتسام ثم ينطلق في حكاية ممتعة إنما خارج الموضوع. فقط حينما نتناول الغداء في كافيتيريا مزدحمة بالناس أو نتمشى في أحد الممرات الطويلة بذلك المبنى الشهير في جزيرة مانهاتن. . . ربما ينطلق الحديث.

أما الذي قام فعلاً بسد باقي الفجوات في ما ألاحظه فكان المرحوم محمود رياض وزير خارجية مصر وقتها. إذ كان يرأس وفد مصر لحضور الاجتماع السنوي للجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر أيلول (سبتمبر) ومعه أيضاً مشاورات الكواليس المتعلقة بمجلس الأمن الدولي. كان وفد مصر السنوي هذا يقيم في فندق «والدورف استوريا». لكن هناك لا أحصل غالباً من محمود رياض على إجابات شافية بما يرضيني. فقط ـ وفي ما يبدو لي بالصدفة البحتة في كل مرة ـ يطلب مني أن نخرج لنتمشى قليلاً في الشارع. وأحياناً نذهب إلى حديقة «سنترال بارك» حيث الهواء الطلق صحي بدرجة أكبر.

وذات مرة، بعدما عدنا إلى القاهرة، عرفت منه أن المسألة في سنترال بارك أو غيرها لم تكن للمشي أو بحثاً عن الهواء الطلق. المسألة هي بصريح العبارة الابتعاد عن أجهزة التنصت. لكن كيف توجد أجهزة تنصت؟ أليس في الوفد معه خبير يتكفل بمعرفتها وابطالها؟ يوجد طبعاً لكن ـ والحديث لمحمود رياض ـ بخبير أو من غيره: يجب الافتراض دائماً أن الطرف الآخر ـ أو الأطراف الأخرى ـ ربما تنجح في التنصت. أكثر من ذلك فإن القوتين العظميين نفسيهما ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وقتذاك ـ لدى كل منهما في

مقر الوفد الدائم خارج مبنى الأمم المتحدة غرفة خاصة اسمها «الغرفة الآمنة»، بمعنى أنها مجهزة تكنولوجياً ضد وسائل الاختراق والتنصت من أي طرف آخر. وفي لحظات الجد لا تدور المشاورات الحاسمة إلا في الغرفة الآمنة. ومن الطبيعي افتراض وجود مثل تلك التكنولوجيا لدى دول أخرى بدرجات متفاوتة.

لم يكن محمود رياض يحكي لي ما سبق بامتعاض، أو حتى بانفعال من أي نوع. كان يحكيه فقط كواحدة من بديهيات الحياة الدولية المعاصرة، إذ لا يهم فقط أن تعرف ما يمارسه الآخرون، بل يجب أن تعرف نياتهم أيضاً. هذا الشعور نفسه راودني حينما تابعت بطرس غالي يقول أخيراً بمناسبة فضيحة التجسس البريطاني على كوفي أنان: «إنني منذ اليوم الأول لدخولي مكتبي ـ كأمين عام للأمم المتحدة ـ قيل لي إن الاتصالات في مكتبي ومحل إقامتي وسيارتي وهاتفي ترصدها أجهزة تنصت».

فإذا كان التجسس والتنصت في الأمم المتحدة وخارجها سراً ذائعاً إلى هذا الحد. فهل هناك قيمة كبرى في الكشف عنها الآن علناً؟ الإجابة هنا تختلف. هناك لص في المدينة يتم القبض عليه بتهمة السرقة فيرد متبجحاً: لماذا أنا بينما المدينة مليئة باللصوص؟ وهناك قاض يرد عليه قائلاً: حتى لو كانت المدينة مليئة باللصوص... إلا أنك من ضبط متلبساً بالسرقة.

ومشكلة توني بلير رئيس وزراء بريطانيا ـ وبالتبعية مفهومه الفريد لنوع «العلاقة الخاصة» مع أميركا ـ هي هنا بالضبط الدور الذي مارسه في شق المجتمع الدولي لحساب أميركا سعياً لغزو واحتلال العراق معروف. إنما الجديد هو المدى الذي غاص إليه. هو لم يضلل العالم

فقط، لقد ضلل شعبه وحكومته وحزبه أيضاً. في 12/ 3/ 2003 كان يقف في مجلس العموم مترافعاً ضد معارضي الحرب متعهداً لهم أنه لن يزج بقوات بريطانية في حرب في العراق إذا لم يوجد أساس كاف لذلك من القانون الدولي. في اليوم التالي مباشرة كان توني بلير نفسه يتصل بسفيره في الأمم المتحدة لمتابعة الجهود المحمومة وقتها من أميركا وبريطانيا معاً لحشد أصوات كافية من الدول الخمس عشرة الأعضاء في مجلس الأمن لاستصدار قرار يفوض بالحرب. يومها رد السفير البريطاني على رئيسه هاتفياً بأنه: رغم كل ما فعلناه لا نزال لا نملك لصالحنا سوى أربعة أصوات... إسبانيا وبلغاريا... زائد أميركا وبريطانيا طبعاً.

في الجوهر، هنا، تجيء عملية التجسس السرية التي جرت ممارستها ضد وفود الدول المعترضة على الحرب، خصوصاً الدول الست «المتأرجحة»، وهي انغولا والكاميرون وغينيا وشيلي والمكسيك وباكستان. تلك الدول اكتشفت فجأة أنها أصبحت بالغة الأهمية عند أميركا وبريطانيا. أهم حتى من فرنسا وألمانيا والصين وروسيا. بعضها جرى التلويح له بمساعدات مالية أميركية طارئة (انغولا وغينيا مثلاً) وبعضها لوّح له بامتيازات تجارية استثنائية (المكسيك وشيلي مثلاً). سفير المكسيك وقتها في الأمم المتحدة يقول مثلاً: ذات ليلة اجتمعنا نحن الستة بشكل غير معلن وباحتياطات أمنية مسبقة للتكتم، لنقوم بصياغة مشروع قرار نتقدم به إلى مجلس الأمن لإعطاء مهلة لمفتشي الأمم المتحدة في العراق فينتفي الدافع لشن الحرب. بعد الاجتماع مباشرة فوجئت بمكالمة هاتفية من ديبلوماسي أميركي مسؤول يقول لي بخليط من الغضب والتحذير: نعرف مشروعكم ونحذركم من تقديمه. لن نستخدم الفيتو لإسقاطه فقط، وإنما الأكثر أهمية أن هذا السلوك لا يعجبنا منكم.

كيف عرف المسؤول الأميركي بفحوى اجتماع السفراء الستة على هذا النحو وبمثل تلك السرعة؟ تلك هي المسألة التي يصب فيها قيام الاستخبارات البريطانية بالتجسس والتنصت لحساب أميركا.

رئيس وزراء بريطانيا كان يعرف أن النسبة الغالبة من الشعب البريطاني ـ وضمنها النسبة الغالبة من حزبه وحكومته ـ ترفض الحرب. ويعرف أيضاً أن هيئة أركان الحرب نبهته إلى أن بريطانيا ـ بعكس أميركا ـ منضمة إلى الاتفاقية الدولية الجنائية المفوضة بمحاكمة مجرمي الحرب؛ وبالتالي فلا بد للقوات البريطانية من وجود تفويض دولي صريح مسبق بالحرب في العراق. يعرف كذلك أن المستشارين القانونيين في وزارة الخارجية البريطانية ـ ومعهم المدعي العام ـ كانوا معارضين بالقدر نفسه انطلاقاً من عدم مشروعية الحرب. بل ان روبن كوك الوزير في حكومة توني بلير نفسه أعلن استقالته رفضاً للحرب.

هل يتروى توني بلير إذن؟ أبداً. في اليوم نفسه (17/ 3/ 2003) عقد اجتماعاً طارئاً لحكومته استدعى لحضوره المدعي العام ليفاجئ الجميع بورقة مختصرة يقرأ منها مقرراً مشروعية دخول بريطانيا الحرب. لحظتها حاولت الوزيرة كلير شورت مناقشته بالسؤال المنطقي: إذا كان هذا رأيك حقاً فلماذا تأخرت في كشفه حتى الآن؟ لكن رئيس الوزراء منع الوزيرة من الاستمرار في المناقشة هي أو غيرها. ممنوع المناقشة. بعد ثلاثة أيام بدأ غزو العراق.

لا يؤخذ قرار الحرب هكذا... ففي الحرب دماء وضحايا وقتلى مدنيون وعسكريون. في الحرب دمار وخراب. في الحرب شعوب بكاملها بكل قارات العالم تريد السماح للأمم المتحدة باستكمال مهمتها أولاً. هناك الكثير على المحك، ليس أقله الاختيار

بين الشرعية الدولية وقانون الغاب. للوهلة الأولى بدا المنتصر إذن هو قانون الغاب. في أدوات ذلك القانون لا توجد صواريخ وقنابل ودبابات فقط. يوجد تجسس وتنصت وأكاذيب تلبس ثوب الحقيقة واستخبارات يتم تسييسها وملفات يتم تلفيقها وأصحاب ضمائر يتم ترويعهم حتى لو كانوا ضمن الحلفاء.

أكثر ما لفت نظري هو ذلك الرجل السويدي الوقور هانز بليكس الذي هو أصلاً أستاذ في القانون الدولي. لقد قال معلقاً على كل ما جرى ما خلاصته: كنت أتوقع تجسساً وتنصتاً على عملنا في العراق من النظام الحاكم ونجحت في التحصن ضده. لكن ما لم أفهمه بالمرة أن يتجسس الأميركيون على اتصالاتي ومقابلاتي وتحركاتي وهواتفي المنزلية والمحمولة. لقد كنت في جانبهم. فكيف حدث هذا؟

صحيح: كيف حدث هذا؟ إنه سؤال عنقودي آخر لن ينجح توني بلير ومعسكر الحرب في الإفلات منه، اليوم وغداً وبعد غد.

كاترينا ليونغ(*)
(Catherina Leong)
(1954 -)

اعتادت الولايات المتحدة على استقبال الكثير من المهاجرين إليها من مختلف أنحاء العالم. فثمة مواطنون أميركيون من أصول قومية من جميع الشعوب. ومن هؤلاء من ينصهر ويصبح أميركياً يخدم كافة المصالح الأميركية حتى لو تطلب ذلك معاداة وطنه الأم وشعبه الأصلي ومنهم من رفض ذلك. ومن هؤلاء كانت الأميركية من أصل صيني كاترينا ليونغ (49 عاماً) إحدى الناشطات في الحزب الجمهوري في كاليفورنيا الجنوبية والتي تحتل منصب مديرة في مجلس الشؤون العالمية في لوس أنجلوس وهي متزوجة ولها ابن. وقد شبّهتْ بـ «ماتا هاري» الفرنسية أشهر جاسوسة في الحرب العالمية الثانية لحساب المانيا، وقيل أنها كانت جاسوسة مزدوجة.

هذه المرأة جندها مكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بي آي) في أوائل الثمانينات عن طريق جيمس سميث (59 عاماً) الذي كان يعد بلغة المخابرات الأميركية (عميلاً خاصاً). وكان سميث قد عمل في

(*) المرجع: «المحرر». العدد (393). 25 نيسان (ابريل) - 1 أيار (مايو) 2003. ومجلة «نيوزويك» الصادرة بالعربية، ص43.

مكتب (أف بي آي) منذ عام 1970 حتى عام 2000 كمختص في شؤون التجسس الصيني المضاد ومكافحته ثم أصبح مسؤولاً عن قسم التجسس الأميركي ضد الصين في مكتب (أف بي آي) في (لوس أنجلوس). والطريف في الأمر أن كاترينا وسميث ارتبطا بعلاقة جسدية استغلتها كاترنيا لصالح جمع المعلومات من سميث ونقلها إلى الصين الشعبية بموجب التهم التي وجهت لها في مستهل شهر نيسان (ابريل) 2003 بعد إلقاء القبض عليها. واعتقلت المخابرات الأميركية أيضاً سميث الذي أصبح متقاعداً بتهمة الإهمال وتعريض الأمن الأميركي للخطر.

وكان رئيس مكتب التحقيقات الفيديرالي روبرت مويلير هو الذي أعلن بعد اعتقال كاترينا أن سميث «ارتكب خيانة ضد الشعب الأميركي وخان الثقة التي منحه إياها مكتب التحقيقات الفيديرالي».

وتقول صحيفة «باسادينا ستار» (9/ 4/ 2003) إن كاترينا ليونغ اعتقلت بتهمة التجسس وبالقيام بدور الجاسوس المزدوج لصالح الصين الشعبية لأنها سرقت معلومات مهمة قومية وهرّبت وثائق إلى الصين حين قام رئيس بلدية لوس أنجلوس جيمس هان بزيارة تجارية رسمية إلى الصين في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2002. وكانت كاترينا تحصل على هذه الوثائق والمعلومات من المسؤول عنها في الـ «أف بي آي» جيمس سميث. وكانت كاترينا تحمل في عملها مع مكتب التحقيقات الفيديرالي الأميركي اسم «بارلور ميد» وفي عملها مع الجانب الصيني اسم «لوو». وقد اعترفت كاترينا أنها سرقت وثائق ونسختها ونقلتها إلى المسؤولين الصينيين بموجب ما أعلنه القاضي الذي رفض إطلاق سراحها بكفالة مالية وقبل بإطلاق سراح سميث بكفالة بقيمة 250 ألف دولار.

وتقول الصحيفة الأميركية إن كاترينا حظيت بثقة الكثير من المسؤولين في الحزب الجمهوري حين نشطت في جمع التبرعات المالية لصالح الجمهوريين في الانتخابات ورتبت حفل عشاء فخم عام 1997 للرئيس الصيني جيانغ زيمين في لوس انجلوس بالتنسيق مع (اف بي آي) ومع المخابرات الصينية في الوقت نفسه. وفي ذلك العام تمكنت من جمع 400 ألف دولار لنفقات احتفال ضخم بعودة هونغ كونغ إلى الصين، حتى أنها اتخذت موقفاً مزايداً على الصينيين ـ الأميركيين في تأييدها للصين الشعبية بمعرفة المخابرات الأميركية التي «بلعت الطعم». ومن غرائب الأمور أن مكتب التحقيقات الفيديرالي الذي عملت جاسوسة ضد الصين لصالحه دفع لها مقابل الخدمات التي قدمتها خلال سنوات كثيرة مبلغ 1,7 مليون دولار.

خطأ كاترينا وزيادة الشبهة

تقول صحيفة «باسادينا ستار» إن منزل كاترينا في سان مارينو ـ لوس أنجلوس وضعت حوله الـ (أف بي آي) عدسات تصور كل من يدخل إليه ويخرج منه، إضافة إلى أجهزة التنصت الدقيقة طوال سنوات كثيرة دون أن يشتبه أحد بها. وفي كانون الأول (ديسمبر) عام 2001 تزايدت الشكوك حول دور تجسسي مضاد للولايات المتحدة تقوم به كاترينا بعد حصول (أف بي آي) على معلومات تشير إلى أنها كانت تنقل معلومات سرية إلى المخابرات الصينية منذ أوائل عام 1991، لكن علاقاتها الحميمة مع سميث وكذلك نائبه وليام كليفلاند أبعدت الشبهات عنها تقريباً.

لكن المراقبة الدائمة لتحركاتها تواصلت رغم كل شيء، وفي 5 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2002 سجلت أجهزة التصوير الإلكترونية

التي أشرف عليها مكتب التحقيقات الفديرالي صورة فيديو للإثنين في غرفة فندق وهما يمارسان الجنس.

وعند ذلك قررت المخابرات الفدرالية تكثيف المراقبة السرية على تحركات كاترينا وقامت في 11 تشرين الثاني (نوفمبر)، أي بعد أقل من أسبوع من كشف علاقتها الجنسية مع مسؤولها سميث، بالتفتيش سراً في حقائب سفرها التي اصطحبتها معها في رحلتها إلى الصين في الوقت نفسه الذي كان فيه رئيس بلدية لوس أنجلوس يسافر إلى الصين. وفي الشهادة الخطية تحت القسم التي قدمها أحد ضباط المخابرات الفدرالية تبين أن حقائب سفرها كان تحوي معلومات سرية تخص مكتب التحقيقات الفديرالي وصوراً فوتوغرافية لعملاء سريين لهذا المكتب. ولم تهتم المخابرات الفدرالية بفتح ملفها في ذلك الوقت لكنها عرفت ما كانت قد حملته معها وانتظرت حتى عودتها من الصين وقامت مرة أخرى سرياً بتفتيش الحقائب لتجد أن كاترينا سلمت تلك المواد والمعلومات إلى المخابرات الصينية. وتبيّن في متابعة تحركاتها أن علاقة خاصة جنسية أيضاً تربطها بضابط في المخابرات الفدرالية هو الذي تولى المسؤولية عنها بعد استقالة سميث.

فقد اعترف هذا الضابط (وليام كليفلاند) بعد التحقيق معه في نيسان (ابريل) 2003 أنه كان على علاقة جنسية بكاترينا وأنه اشتبه منذ عام 1991 بأن كاترينا نقلت في ذلك الوقت معلومات لوزارة أمن الدولة في الصين ولم تكن هذه المعلومات مما أعدته المخابرات الفدرالية لتضليل الصينيين بموجب طريقة التجسس التي تعتمدها الـ (اف بي آي). وبعد تنصت سري على بعض مكالمات كاترينا ظهر لكليفلاند أنها كانت تتحدث مع شخص صيني يدعى ماو من

المخابرات الصينية. فتحول كليفلاند إلى صديقه سميث في لوس أنجلوس وأطلعه على هذه المعلومات عن جاسوسته كاترينا. وظهر على سميث الغضب والانزعاج بموجب ما صرح به كليفلاند أمام المحكمة. وطلب سميث من كليفلاند أن يدع هذه المسألة له لكي يتابعها ويتعرف على أبعادها ومدى وجود عمل تجسسي ضد أميركا فيها، وسلم كليفلاند المسألة لسميث واعتمد على ما سيقوم به بصفته الضابط المسؤول عنها.

وبعد وقت قصير أبلغ سميث كليفلاند بأنه عالج الأمر وليس فيه ما يستدعي القلق والمتابعة، وهكذا انتهى الأمر عند هذا الحد.

أوراق مهمة في فندق الريتس

وتبين بعد اعتقال كاترينا واستجواب صديقيها الضابطين في المخابرات الفدرالية أن سميث كان يلتقيها في فندق ريتس كارلتون في باسادينا وكان يحمل معه إلى الفندق حقيبته الخاصة التي تحوي أوراقاً تعد سرية جداً ومع ذلك يتركها مفتوحة. فتتسلل كاترينا ليلاً للاطلاع على محتوياتها وتصوير المهم فيها، أو كتابة ملاحظات عنها ونقل ما تراه منها. واعترفت كاترينا أنها نفذت مثل هذه الأعمال مع سميث وكذلك مع كليفلاند حين كانت تلتقي به على انفراد. ويقول برايان سان محامي الدفاع عن سميث أن الخطأ الفادح لا يتحمله موكله بل المخابرات الفدرالية التي طلبت منه استخدام كاترينا ضمن ازدواجية محددة ضد الصين رغم ما يحيط بهذه العملية من أخطار المساس بالمخابرات الفدرالية. واعتبر سان أن مكتب التحقيقات الفدرالية هو الذي فتح الباب لكاترينا وسهّل لها هذا التجسس ضد الولايات المتحدة وليس سميث.

لكن الضربة القاسية التي وجهتها المخابرات الصينية في قلب المخابرات الفدرالية كانت قاسية جداً لا بسبب سميث وحده، بل لأن صديقه المختص باللغة الصينية كليفلاند الذي اعتبر بطلاً في الكشف عن الجواسيس الأميركيين الذين يعملون لصالح الصين وقع في فخ كاترينا. فقد كان كليفلاند من بين الضباط البارزين في الكشف عن عدد من الجواسيس الأميركيين من أصل صيني عملوا لصالح الصين الشعبية. وحين استقال عام 1993 اعتبرت المخابرات الفدرالية أنها فقدت طاقة مهمة ولم يصدق أحد أنه وقع في حبائل كاترينا أثناء عمله في عام 1991 واستغلته كما استغلت سميث لصالح المخابرات الصينية.

ويقول كين شيفير أحد كبار ضباط المخابرات الفدرالية في دائرة مكافحة التجسس الصيني: «كان كليفلاند من أفضل من عرفت في هذا العمل بل أفضل من في العالم. لقد كان بطلاً ولديه ذكاء فريد داخل هذا القسم». لكن كاترينا الصينية الجميلة حقاً عطّلت ذكاءه وخبرته على ما يبدو ولفترة طويلة. ولم يعترف بذلك إلا بعد اعتراف زميله سميث صديقها الأول. فبعد عشرين عاماً من وجودها عميلة مزدوجة لم تظهر الشكوك القوية تجاهها إلا في كانون الأول (ديسمبر) عام 2001 رغم أنها كانت تنقل المعلومات السرية إلى الصين الشعبية منذ عام 1991.

أما أندرو مور ومايكل ايسيكوف فإنهما كتبا أيضاً:

ليس من السهل على سياسيين أميركيين الحصول على مقابلات شخصية مع قادة الصين الانعزاليين. ولهذا وفي عام 1998، عندما أراد ريتشارد ريردون عمدة مدينة لوس أنجلوس إقناع بكين بتوقيع عقد

بقيمة عدة ملايين يسمح لها باستعمال ميناء مدينة لوس أنجلوس، عرف مساعدوه ممن يطلبون المساعدة: سيدة أعمال أميركية من أصل صيني، كاترين ليونغ. كانت ليونغ متوهجة وصارمة وشديدة الاعتزاز بنفسها وعلى علاقة وثيقة بمسؤولين صينيين رفيعي الشأن في بكين. وبمساعدتها قابل ريردون الرئيس الصيني جيانغ زيمين وجهاً لوجه.

كانت المقابلة ودية، ولكن العمدة عاد إلى وطنه بخفي حنين، وبعيد ذلك، علمت «نيوزويك»، أن ليونغ أخبرت مسؤولاً رفيعاً في لوس أنجلوس أن بإمكانها أن تحقق الصفقة. ويتذكر المسؤول قولها: «عليك أن تقوم بإيداع بعض المال في حساب معين في بنك بمدينة هونغ كونغ. وبعد ذلك... سوف تحصل المدينة على العقد». وقادها المسؤول المصاب بالذهول خارج مكتبه. وخلص إلى القول بأنه في المستقبل «يجب عدم السماح لكاترينا بأن تكون على انفراد مع أي منا».

ولو أن مكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بي آي) توصل إلى النتيجة نفسها. لقد كانت ليونغ، كما يعرف العالم الآن، من أكثر مخبري مكتب التحقيقات موثوقية، إذ قامت على مدى عقدين من الزمن بتزويد الحكومة الأميركية بمعلومات قيمة عن نشاطات الحكومة الصينية. غير أن المدعين الفيدراليين يقولون الآن إن تلك الثقة كانت في غير محلها. وتم إلقاء القبض عليها بتهمة حيازة وثائق سرية للحكومة الأميركية بطريقة غير مشروعة. ويقول المدعون الفيدراليون إن ليونغ كانت عميلاً مزدوجاً، وإنها أقامت علاقة غرامية سرية مع العميل المكلف بالتعامل معها من قبل مكتب التحقيقات. وتم القبض على العميل الخاص، جيمس سميث، الذي قام بتجنيدها قبل 20 عاماً، بتهمة الإهمال الفادح. يقول المسؤولون الفيدراليون إن سميث

كان يقوم بترك حقيبته مفتوحة ومهملة عندما كان أحياناً بصحبة ليونغ، الأمر الذي أتاح لليونغ الاطلاع على وثائق سرية بداخلها. ويتوقع الادعاء الفيدرالي توجيه تهمة إلى ليونغ وسميث (هذا الأسبوع). (وفي رسالة إلكترونية إلى نيوزويك، صرح كام، زوج ليونغ، بأنه واثق من أن محامي زوجته «سوف يظهرون الحقيقة وأن زوجته ستبرأ من كل التهم». ولقد قال محامي سميث إنه سيفند التهم).

أما سميث، وهو عميل محترم في لوس أنجلوس، كان قد جند ليونغ عام 1982. وكانت ليونغ، المهاجرة الصينية ذات الـ 28 ربيعاً والتي تحمل الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة شيكاغو، تجيد التحدث بطلاقة باللهجتين الكانتونية والماندرانية، وكانت قد قامت برحلات متكررة إلى الصين أثناء عملها كمسوقة. وسرعان ما بدأ الاثنان، وكلاهما متزوج، بإقامة علاقة غرامية.

وكانت هناك علامات مبكرة بأن ليونغ تمثل مشكلة، وبحسب وثائق المحكمة فإن أحد عملاء مكتب التحقيقات بمدينة سان فرانسيسكو يدعى وليام كليفلاند قد أبلغ سميث تحذيراً بأن تسجيلات المكالمات بمكتب التحقيقات الفيدرالي أظهرت أن ليونغ تقوم بتزويد معلومات سرية للصين. (وكما تبين لاحقاً فإن كليفلاند هو الآخر كان على علاقة غرامية بليونغ). وبالرغم من أن المدعين الفيدراليين كانوا يخشون من أنها قد تكون عميلة مزدوجة. فإن المكتب تركها وشأنها مكتفين بتحذير جزئي من سميث.

في أثناء ذلك، كانت المرأة التي أطلق عليها مكتب التحقيقات اسم النادلة قد أصبحت ثرية عن طريق هبات شركات غربية لعقدها صفقات مع الصين. ففي منتصف التسعينات دفعت شركة الاتصالات

الكندية العملاقة «نورتل» مبلغ 1,2 مليون دولار كعمولة مقابل خدماتها. (قال مكتب التحقيقات الفيدرالي إن ليونغ وزوجها كانا يتحكمان في 16 حساباً مصرفياً في الخارج). فقد كانت تملك بيتاً قيمته مليون دولار في منطقة سان مارينو الراقية بولاية كاليفورنيا، وكانت تقيم الحفلات المسرفة وتبرعت بسخاء للمرشحين السياسيين.

لا يبدو واضحاً مدى معرفة مكتب التحقيقات بصفقات ليونغ التجارية. يقول محامي سميث إن موكله ملم «بصفة عامة» بمصادرها المالية الأخرى، غير أنه لم ينقب بعمق أبعد لأنها كانت مصدراً جيداً للمعلومات. كما كان يبدو واضحاً أن مكتب التحقيقات لم يهتم بأنها كانت تستخدم رحلاتها المدفوعة من قبل الحكومة إلى الصين لكي تطور أعمالها. وقد كانت مكافأة ليونغ من مكتب التحقيقات مقابل تقديمها للمعلومات قد بلغت حداً أقصى قدره 3,000 دولار شهرياً. غير أنها، عبر كل هذه السنين، تلقت ما مجموعه 1,7 مليون دولار. ودفع معظم ذلك المبلغ كتعويض عن علاوات سفر. يقول فان ماغرس، وهو مسؤول سابق في مكافحة التجسس: «إنها كانت تزودنا بما كانت تعتقد أننا بحاجة إليه، وأنها كانت تزود (الصينيين) بما كانوا يودون أن يعرفوه. وكانت تقوم بكل ذلك لمصلحة كاترينا ليونغ».

تقول مصادر للسلطة القانونية إنه قد تمر سنوات عدة قبل معرفة مدى الضرر الذي أحدثته ليونغ. هذا وقد علمت نيوزويك أن مكتب التحقيقات قام بعملية مراجعة شاملة للأسلوب الذي يتعامل به الوكلاء مع مصادر معلوماتهم، كما قام بتطوير «منظومة» تنذر بالخطر حينما يكون المشرف في وضع حميمي أكثر مما يلزم مع مصدر المعلومات. وبالنسبة إلى حالة كاترينا ليونغ، فإن تلك المؤشرات الخطيرة كان من الصعب تجاهلها.

كاتلين غرانت(*)
(Catheline Grant)
(1942 ـ 1907)

هي إحدى جاسوسات المخابرات البريطانية. وقد اشتهرت بلقب: «المتسَكِّعَة في الظلام».

فمن هي هذه الجاسوسة؟ وماذا عن دورها؟

أطلقوا عليها «ذات اللقب الحديدي»، فسرعان ما طغى هذا اللقب على اسمها الحقيقي ـ **كاتلين غرانت** ـ وعلى الرمز الذي أطلق عليها في قوائم إدارة المخابرات البريطانية «1 ـ 18».. وكانوا على حق.. إذ كانت الفتاة تجمع بين أقصى آيات البرود الإنكليزي، والصلابة، والجرأة، وقوة الجنان.. حتى أن طلقات الرصاص ودوي المدافع لم يكن لها من تأثير لديها، أكثر مما لطنين الذباب...

وكان لنشأتها أكبر الأثر في تكوين شخصيتها.. إنها قصة دامية مؤلمة من قصص الحرب العظمى الأولى.. فقد ولدت كاتلين من أب إنكليزي وأم فرنسية.. وكانت في السابعة من عمرها، تقيم مع أسرتها في ذلك الجزء الصغير من شمال فرنسا الذي اجتاحه الألمان بعد أن

(*) **المرجع**: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. دار الكاتب العربي. بيروت. الطبعة الأولى 1992. ص14 ـ 19.

اجتازوا أرض بلجيكا في الحرب الأولى.. ورأت الصبية اليافعة، كيف كان الغزاة الغلاظ، يمسكون بأهل قريتها ـ وبينهم أبوها وأمها ـ فيذبحونهم أمام عينيها وأعين الأطفال الآخرين، أو يبقرون بطونهم بسنان بنادقهم، ثم يلقون بجثثهم في الخنادق، ويلقون بالأطفال أحياء فوقهم...

وبقي هذا المنظر عالقاً بذهن كاتلين طول عمرها.. ولقد قضت في تلك الخنادق يومين وليلتين، فوق الجثث والأشلاء، إلى أن قدر لبعض المارة أن يعثروا عليها بعد أن ذهب الألمان، فانتشلوها.. وارتدت إلى الحياة..

ولكنها لم تعد الصبية المرحة، الساذجة.. بل تحجر قلبها وانحبست الدموع في مآقيها وانطبعت في مرآة عينيها وعقلها الباطن تلك الصور المروعة التي شهدتها في فجر حياتها.. تحفزها دائماً للثأر والانتقام..

وعاشت بعد الحرب مع جدتها لأمها، وكانت فرنسية ثرية تملك مصنعاً للشيكولاتة في باريس، واندمجت في البيئة الفرنسية، فغلبت فرنسيتها على إنكليزيتها في كل شيء.. حتى إذا ماتت جدتها، ورثتها وخلفتها في إدارة مصنع الشيكولاتة..

وفي الوقت الذي لاحت فيه نذر الحرب الثانية في الجو، قدر لكاتلين أن تتعرف ـ بمحض المصادفة ـ بكبير من رجال المخابرات البريطانية..

وتوطدت الصداقة بين كاتلين والرجل، فلم تلبث أن روت له قصتها الدامية.. وإذا به يجد فيها بريقاً من الأمل، يضيء السبيل إلى استغلال حقد الفتاة لمصلحة المخابرات البريطانية، فلم يغادرها إلا

وقد اتفق معها على خطة للعمل، لقاء خمسمائة جنيه شهرياً، لا كأجر، وإنما كتعويض لها عما سيضطرها عملها إلى إنفاقه من مال!..

وبدأت كاتلين تعاونها مع المخابرات البريطانية باستقصاء أخبار برلين بواسطة عميل لها هناك اسمه فون ليمتز..

وكانت كاتلين تتبادل معه الرسائل بوسيلة فنية ماكرة.. كان كل منهما يدس رسائله داخل عجينة قطع الشيكولاتة التي ترسلها إليه ـ بوصفه عميلاً لمصنعها ـ أو التي يردها إليها، بزعم أنها تالفة، أو ليست من النوع الذي طلبه، فإذا ما تجمعت المعلومات للفتاة، صاغتها في قالب رسائل تجارية تبعث بها إلى عميل لمصنعها في لندن، كان في الواقع من رجال المخابرات البريطانية. وكانت تستخدم في سياق رسائلها رموزاً ومصطلحات اتفقت عليها مع إدارة المخابرات.. وهكذا راحت توافي إنكلترا بأنباء الاستعدادات والتأهبات التي كان يحشدها سلاح الطيران الألماني، إذ كان لفون ليمتز ابن عم يدير مقصفاً بثكنات جنود هذا السلاح.

على أن تطورات الحوادث، لم تلبث أن استلزمت اللجوء إلى وسيلة أخرى، لتبادل الرسائل. فكلفت كاتلين بأن تبعث برسائلها سراً إلى السفارة البريطانية في باريس، لترسل في الحقيبة الديبلوماسية إلى لندن.. وإمعاناً من إدارة المخابرات البريطانية في الاحتياط، أصدرت تعليماتها إلى السفير البريطاني في باريس بأن يضع رسائل كاتلين ضمن ملف خاص إلى زميله في مدريد، ليتولى هذا إرساله ـ في الحال ـ إلى وزارة الخارجية البريطانية، حيث تتسلمه إدارة المخابرات..

واشتعلت نيران الحرب، فرأت إدارة المخابرات البريطانية أن تستأثر بجهود كاتلين، ولذا استدعتها إلى لندن فضمتها إلى موظفي المركز الرئيسي وعهدت إليها بمراقبة بريد بعض المشتبه بأمرهم في لندن. . فوفقت كل التوفيق في هذه المهمة. . وكان أول انتصاراتها أن كشفت عن مؤامرة خطيرة فضحتها خمس رسائل تجارية من تاجر هندي في لندن إلى عميل له في أنقرة. . وكانت الرسائل مصوغة في قالب تجاري عملي، ولكن كاتلين تبينت أن بين كلماتها روابط، بحيث أنها إذا ضم بعضها إلى بعض، كانت تقريراً مفصلاً عن الطريق الذي صدرت الأوامر إلى الأسطول البريطاني باتباعه في البحر. . وبفضل ذكاء كاتلين، قدر للأسطول أن ينجو من غواصات الألمان.

واتبعت كاتلين نصرها الأول، بنصر ثان، يوم وقعت في يدها رسالة من أحد هواة جمع طوابع البريد ـ في لندن ـ إلى صديق له في أنقرة، أرفق بها صحيفة لصق عليها بعض الطوابع بترتيب رمزي يتسق مع إحدى «الشيفرات» السرية الألمانية المعروفة لدى المخابرات البريطانية، بحيث تدل الرسالة على عدد بعض وحدات الجيش البريطاني.

ثم أحرزت نصراً جديداً، يوم اشتبهت في رسالة من تاجر في لندن إلى آخر في «دربان» ـ بجنوب افريقيا ـ جاء فيها: «ستصل والدتي إلى الكاب في منتصف الشهر القادم، اذهب إلى المستر مورتر بلغه تحياتي. المستر ادغار مات». . وترقبت الرد. وما لبثت أن وقعت عليه. . فإذا بتاجر «دربان» يقول: «سنستقبل والدتك. المستر مورتر يبلغك تحياته. خبرني هل المستر ادغار مات أم قتل؟».

وكان السؤال الأخير، بل الكلمة الأخيرة منه، محققة

لاشتباهها، فاعتقل التاجر اللندني وما لبث أن اعترف بتجسسه لحساب الألمان..

وفي بحر عامين كانت كاتلين غرانت قد وفقت إلى هتك سر 210 من جواسيس المحور في بريطانيا.. ووضعت كتاباً عن الحيل والوسائل الشيطانية التي اكتشفتها في رقابتها للبريد والبرق، فصار من أهم المراجع التي تدرس في مدرسة المخابرات.

وإذ أقدم الألمان على اجتياح فرنسا، بادرت إدارة المخابرات إلى إعادة كاثلين غرانت إلى باريس، لتستعين بها في الظروف التي كانت مرتقبة، نتيجة هذا الغزو.. واستطاعت الفتاة أن تصل إلى باريس، وما زال الألمان في الشمال.. فتظاهرت بأنها كانت في رحلة سياحية حول العالم، وأعادت فتح مصنع الشكولاتة، كما ألحقت به مقهى صغيراً، استخدمت فيه فريقاً من الباريسيات الحسان.. فأصبح مقصد الضباط الألمان وقبلتهم، لما أعد لهم من وسائل اللهو.. مما مكن الفتاة الجريئة من الحصول على كثير من الأسرار الخطيرة، التي كانت تبلغها إلى لندن من محطة لاسلكية سرية..

إزاء هذا التوفيق، رأت إدارة المخابرات أن تعهد إلى كاتلين بنوع خطير من المهام ينطوي على تدمير بعض المواقع والمنشآت النازية، ونسف القطارات والمعسكرات، وقطع أسلاك التليفون، وغير ذلك من الأعمال التي تعرقل استعداد الألمان لغزو الجزر البريطانية.. وأرشدت الإدارة فتاتها البارعة إلى فريق من رجال المقاومة السرية الفرنسيين، راحوا يمدونها بالمفرقعات ومواد النسف..

ونجحت كاتلين كل النجاح في مهمتها الجديدة.. وكان لها في

قلبها الحديدي عون على الإقدام والمخاطرة.. فكانت تتسكع في الطرقات في الهزيع الأخير من الليل، حتى تلتقي بضابط أو جندي ألماني مخمور، فإذا ما استوثقت من أنه في أقصى حالات السكر، غازلته حتى يطمئن إليها، ثم تتطوع لمرافقته إلى معسكره، في سيارة يقودها أحد رجال المقاومة الفرنسيين.. وتطول الطريق ما بقي في الضابط الألماني وعي وما شاء له هذا الوعي المخمور مغازلة تلك المتسكعة في الظلام، ثم تودع كاتلين صاحبها الألماني على باب المعسكر وتعود مسرعة بالسيارة.. ويدخل الضابط أو الجندي إلى معسكره.. وإذ يبدأ في خلع ثيابه، تنفجر قنبلة زمنية شديدة الانفجار تكون قد دستها في جيوبه، أو في علبة للحلوى أهدتها إليه خلال الطريق.. ويتمزق المسكين.. ويتمزق معه المعسكر..

وفي ذات مساء، انتقلت كاتلين مع ضابط ألماني من رواد مقهاها أسرف في الشراب، حتى عز عليه أن ينصرف إلى معسكره، فتطوعت لمرافقته.. وعلى مسافة من المعسكر، ودعته وعادت إلى دارها، ففوجئت بعدد من رجال الغستابو في ارتقابها.. فلقد خانتها القنبلة التي دستها في جيب ضابطها المخمور فلم تنفجر لخلل أصابها.. وقُدّر للضابط أن يعثر عليها وهو يخلع ثيابه، فجزع، وبادر يبلغ الأمر لرؤسائه..

واتجهت الشبهات إلى كاتلين بعد أن روى الضابط تفاصيل سهرته معها..

ونقلت كاتلين غرانت إلى برلين، حيث حوكمت عسكرياً، فقضي عليها بالإعدام..

واخترق رصاص الألمان القلب الحديدي.. فلم يعد ينبض بالحياة والنشاط..

كارمن ماري موري(*)
(Carmen M. Mory)
(1947 - 1906)

هي إحدى أشهر الجواسيس الألمان أثناء فترة الحرب العالمية الثانية، حيث لقبت بـ «الملاك الأسود». وكان قد جندها في الجاسوسية الضابط الألماني «هنز» الذي يعمل في استخبارات الجيش النازي، حيث قال لها:

سأتزوج بك فور الانتهاء من أداء مهمتك. هذا ما قاله الضابط في منظمات الاستخبارات للجيش الألماني لتلك الفتاة الأنيقة ذات الشعر الأسود والتي كانت تستند إلى كتفيه، وعندئذٍ، ابتسمت له ابتسامة ملائكية، تكفي للتلاعب والتأثير في قلوب الكثير من الرجال، وأجابته على قوله هذا بصوت دافئ، ولكنه خشن قليلاً، هل تسخر مني يا (هنز) هيه؟ وعند ذلك انحنى الضابط إلى الأمام ليربت على وجنتيها، ويقول لها: (لقد قطعت لك وعداً شريفاً، وإنني أثق من نجاحك في أداء هذه المهمة، وستكون المعلومات التي ستحصلين

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية» ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965. ص 75 - 85. وسعيد الجزائري «المخابرات والعالم». ص331 - 337. ود. صالح زهر الدين «قاموس المخابرات والتجسس». الجزء الحادي عشر. المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2003، ص72 - 75.

عليها ذات أهمية كبرى بالنسبة للرايخ، عاش هتلر...).

ثم، وضعت السيدة قبعتها على رأسها، واستنار وجهها بابتسامة عذبة وكان كل من يراها يستطيع أن يتصور بأن هذه الفتاة لا تتجاوز الثانية والثلاثين من عمرها وقبل أن تغادر الفتاة عشيقها، التفتت لتقول له: (كلا يا هنز، انني لن أفشل في أداء مهمتي ـ فلدي من المعلومات ما سيمكنني من النجاح. وضحكت ضحكة عريضة وهي تتابع حديثها، وغداً، وفي مثل هذه الساعة سأكون في باريس، في فندق (جورج الخامس). ودمدم رفيقها وهو ينظر إليها بعينين ملؤهما الإعجاب: أتمنى لك حظاً طيباً. ثم تابع النظر إليها وهي تغادر مكتبه بخطوات خفيفة متراقصة كخطى عارضات الأزياء.

في تلك الفترة، وقبل أن تندلع نيران الحرب العالمية الثانية، كانت (**كارمن ماري موري**) والتي أصبحت بعد ذلك من أشهر الجواسيس الألمان على وشك البدء في أول مهمة لها وكانت هذه المهمة على جانب كبير من الخطورة كما كانت المدة لأدائها قصيرة، والعمل فيها دقيقاً وكان نجاحها في أدائها هو الذي أكسبها ذلك اللقب الذي اشتهرت به وهو، **الملاك الأسود**.

كان ذلك في عام 1938، نفس السنة التي اجتاحت فيها قوات هتلر بلاد النمسا وحدود (السوديت) وشهدت أزمة ميونيخ.

المهمة: الكشف عن أسرار قلعة «ماجينو»:

تخرجت (كارمن) من معهد الجاسوسية الألمانية، وأسند إليها مهمة دقيقة، هي الكشف عن أسرار، (ماجينو) تلك القلعة التي وصفوها بأنها منيعة، ولا يمكن اختراقها، والتي كانت تمتد على طول حدود سويسرا وبلجيكا، ولم يعترض سبيل تنفيذ هذه المهمة التي

كانت تقوم بها امرأة مغرية ومتمكنة وذكية (ككارمن) إلا القليل من الصعاب.

وبما أن (كارمن) كانت تنهل من معين مادي لا ينضب يمدها به رؤساؤها فقد تمكنت من شق طريقها رأساً في العاصمة الفرنسية إلى أكثر الأوساط أهمية بحيث أصبحت الرفيقة المشتركة والتي يبحث عن رفقتها عدد من ضباط الجيش الفرنسي، كما يقصدها العديد من الشخصيات الهامة في (الكي دو رسيه).

وكانت تذهب من وقت إلى وقت آخر للقيام بزيارة قصيرة لبعض المدن والقرى الواقعة على مقربة من خط ماجينو ولكنها لم تتردد إطلاقاً على مكان واحد أكثر من مرة واحدة.

ولقد تمكنت (ماري) وبالتدريج، من معرفة أشياء كثيرة عن الأسلوب الشهير لتحصينات خط ماجينو والذي كان يتضمن ثكنات تحت الأرض تتصل فيما بينها بدهاليز وممرات تخترقها الخطوط الحديدية والكهربائية، كما تعرفت أيضاً على مواضع حقول الألغام، وسدود الحواجز المضادة للدبابات وكذلك الحواجز الأخرى التي تم تمويهها بإتقان لتحمي محاور الدفاع عن خط (ماجينو). ومن هناك، وبعيداً عن هذا الخط تعرفت كارمن على النقاط الاستراتيجية التي كان يضعها الفرنسيون في مخططاتهم لإعاقة أي هجوم وذلك لإجبار المهاجم على اتخاذ أوضاع يكشف فيها عن أهدافه. ثم قامت (كارمن) بإرسال تلك المعلومات إلى خطيبها، ضابط الاستخبارات الألماني والمقيم في (ميونيخ)، بواسطة استخدام نصوص رمزية. وكانت هذه المعلومات التفصيلية تتضمن أدق المعلومات التي تمكنت من الحصول عليها، ولقد قامت بذلك فقدمت أجل الخدمات إلى

الرايخ الثالث، كعميلة مأجورة... حتى أتى ذلك اليوم الذي افتضح فيه أمرها بدون أن تشعر.

في مساء يوم من أيام 1939، وبينما كانت فرنسا بكاملها تتساءل بقلق عما إذا كانت ستضطر إلى دخول الحرب، بقيت (كارمن) ولفترة طويلة في مشرب فندق (جورج الخامس) وقد أصبحت من نزلائه المرموقين حيث كان يعاملها الجميع باحترام كبير. في هذا المساء بالذات تناولت مزيداً من الشراب بصحبة رفيقيها، اللذين كانا ضابطين في الجيش الفرنسي، ودخلت في حديث يتجاوز في مداه ما يتطلبه الحذر منها، دون أن تدري بأن هذين الضابطين هما من ضباط الشعبة الثانية «المخابرات». ولقد كانت (كارمن) في موضع الشبهة منذ زمن بعيد، وكانت الشكوك تحوم حولها في أن تكون إحدى عميلات النازية، وكانت هذه السهرة بمثابة إثبات لهذه الشكوك وتأكيد لها، نتيجة لما كانت تقوله عند إجابتها على بعض الأسئلة التي تم إعدادها بمهارة، وطرحها ببراءة، أثناء مزجها في سياق الأحاديث.

تم اعتقال (كارمن) في اليوم التالي حيث اقتيدت إلى سجن «بوتيت روكت» الموحش والذي يقع في ضاحية من ضواحي باريس ولم تكن المعاملة التي لقيتها في هذا السجن معاملة حسنة بالنسبة إلى امرأة، وبقيت هناك حتى شهر نيسان (ابريل) من عام 1940 حيث أصدر المجلس العسكري حكمه عليها بالإعدام، ولكن هذا الحكم لم ينفذ أبداً، ذلك أن الرئيس (لوبرون) والمتقدم في السن أذهلته وأقلقته هجمات هتلر القوية ضد فرنسا فعمل على تخفيف العقوبة وإنزالها إلى السجن المؤبد مدى الحياة. وقد تم تحرير (كارمن) وإطلاق سراحها من سجنها بعد ذلك بستة أسابيع فقط عندما سقطت فرنسا، ووصلت القوات النازية المنتصرة إلى باريس.

إجادتها للغات:

لقد قامت (كارمن موري) بأداء خدمات جيدة لسادتها الألمان، باستثناء هذا الخطأ الوحيد الذي وقعت به في مشرب فندق جورج الخامس، وقد حسب رجال (الغستابو) حسابهم فأدركوا مدى الفائدة المرجوة منها، فذكاؤها، ومعرفتها التامة لكل من اللغات الفرنسية، والهولندية، والإنكليزية، كل ذلك سيكون ذا عون لا مثيل له في منظمات جاسوسية الفوهور. وحملتها طائرة إلى برلين حيث تمت مرافقتها إلى مكتب (رين هارد هيدريك) زعيم الغستابو والذي جعل منها فيما بعد (جلادة بوهيميا)، حيث قال لها بلهجة جافة وهو يجلس خلف مكتبة الضخم، بينما كانت عيناه الزرقاوان تتفحصان هذه الزائرة الجميلة:

ـ (مرحباً بك يا آنسة في بلادك، ان الحظ حليفك لكونك لا زلت على قيد الحياة). وإجابته بتواضع: (شكراً، وانني في الواقع لا أستحق الحياة بعد أن خدعت ـ أنه خطأ لا يغتفر). وعندئذٍ، قال لها (هيدريك) وهو يدفع أعذارها بحركة واسعة من يده: انه الماضي، فلنترك الحديث عنه، كما وانني وجدت لك عملاً جديداً ينتظرك).

وبدت لهجته ذات أسلوب ودي محبب تقريباً، وكانت كارمن تعرف بأن هناك عدد من العملاء الآخرين قد ألقي بهم في معسكرات الاعتقال الإجباري لأخطاء تقل خطورة عن خطيئتها ولكنها أدركت في ذات الوقت، بأنها ستكون أكثر فائدة لهم وهي حرة خارج السجن، منها مقيدة خلف الأسياج الشائكة. وان الألمان في حاجة إلى مثلها لأداء بعض المهمات الخاصة في بعض الأماكن الخطرة، وتابع حديثه:

سوف أبعث بك إلى كل من بلجيكا وهولندا، وتتضمن مهمتك التظاهر والعمل كعضو في منظمات المقاومة السرية، وسيكون دورك هو اكتساب ثقة رؤساء التنظيمات السرية وعليك أن تكتشفي هوية هؤلاء الرؤساء، ومكان عملهم، وأسلوبهم في العمل وسيقوم (الغستابو) بعد ذلك باستكمال المهمة. ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة وهو يحدد لها هذه المهمة: إننا نريد معرفة كل شيء عن هؤلاء الأشخاص، وعن عائلاتهم، وعلاقاتهم مع عملائهم، وبصورة خاصة مع عائلاتهم، هذا كل شيء...

ونهضت كارمن ببطء، وهي تشعر بعزاء كبير ذلك أنها كانت تعلم بأنه كان بالإمكان أن يتم ذلك الحديث بأسلوب آخر يختلف تماماً عن هذا الأسلوب، وقالت لمحدثها:

- (ليس في قولي هذا شيء من التملق يا (هر هيدريك) إذا ما ذكرت لك بأن تعييني في مثل هذه المهمة سيتوافق تماماً مع إمكاناتي، فمتى سأبدأ عملي؟..).

- ستكون الأوراق التي ستحتاجينها في حوزتك في الساعة الأولى من صباح الغد، وستجتازين الحدود على أنك فرنسية هاربة من باريس، ولن يكون صعباً عليك بفضل معرفتك التامة للغة الفرنسية.

كانت هذه المهمة في الواقع تتلائم تماماً مع إمكانيات (كارمن موري). هذه المرأة التي تمتلك من الفتنة والجمال ما يجعلها أشبه (بجيزابيل)، منها بالجاسوسية، والتي تحمل نفسية الصياد، وفي حناياها شيء من (السادية) وهذا ما يفسر لذتها وهي تشهد مصرع الآخرين ونظرات الهلع تنبعث من عيونهم مما كان يحمل لها انفعالات جديدة، وينسب فيما ينسب إليها، اختفاء عدد من

البلجيكيين والهولنديين، ممن كانوا يعملون ضد النازية المحتلة.

كانت الضحية الأولى (لكارمن) في مهمتها الجديدة فتاة تعمل كضاربة على الآلة الكاتبة في أحد مكاتب بروكسل، لها من العمر سبعة عشر ربيعاً، وكان أخوها قد قتل أثناء الغزو الألماني. ولقد قامت كارمن بوشاية هذه الفتاة إلى الغستابو، الذي عمل على اعتقالها ذات مساء، بينما كانت تحمل رسالة بالشيفرة من إحدى منظمات المقاومة إلى منظمة أخرى، ولم يعثر لها بعد ذلك على أي أثر.

لم يتمكن أحد من تنظيم لائحة رسمية بعدد الذين عملت (كارمن) على الوشاية بهم من رجال ونساء، ومن المواطنين الذين كان لهم أهميتهم في النضال ضد النازية حيث أسلمتهم إلى أيدي رجال الغستابو ولكن من الثابت بأن نتائج أعمالها كانت رهيبة للغاية.

أما الأسلوب الذي كانت (كارمن) تتبعه للإيقاع بضحاياها، فهو ذات ذلك الأسلوب الماكر الذي كانت قد استخدمته قبلاً، عند الاستيلاء على أسرار خط ماجينو.

نتيجة لنجاح (كارمن) في تنفيذ مهماتها، فقد اكتسبت ثقة بنفسها، وأصبحت معتدة بمكانتها. وذات يوم، تورطت بنقاش حاد مع ضابط من ضباط الغستابو في «أمستردام»، إذ اتهمها ذلك الضابط بأنها تتغاضى عن بعض الأشخاص الذين أُنيط إليها أمر الكشف عن نشاطهم، بل ذهب في اتهامه لها إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما ألمح بشكوكه عنها في أنها تلعب دور العملاء المزدوجين، عندما ذكر لها بأنها تعمل على تسليم وفضح عناصر المقاومة العاديين، والذين لا أهمية لأدوارهم، تاركة رؤساءهم يعملون بأمن وهدوء.

لم يكن ذلك الاتهام الذي وجه إلى (كارمن) صريحاً، ولكنه

كان على درجة كافية من الوضوح، الذي كان يفصح عما كان يدور في مخيلة قائله، وعندئذٍ، صرخت في وجه ذلك الضابط وعيناها تشعان شرراً:

ـ «اكف نفسك مؤونة إرشادي لما يجب عليّ أن أقوم به، فلقد نسيت الكثير من الأشياء التي لن تتمكن من تعلمها طوال حياتك، إنني أعرف ما أعمله، وانني إذا ما احتجت إلى رأيك، فسأطلبه منك».

على أثر هذه المناقشة العاصفة، تم إرسال تقرير إلى (هايدريك) الذي درس هذا التقرير، وقارنه مع التقارير القديمة، ومنها ما يرجع تاريخه إلى فترة ما قبل الحرب العالمية، وحتى أحدث ما كتب عنها، وكانت نتيجة الدراسة بأنه لا يوجد أي مبرر للشك في سلوك هذه المرأة، الفريدة في استقامتها، والتي قدمت إلى الرايخ الثالث أفضل الخدمات.

لقد كان من الصعب إثبات كون (كارمن) ذات عرق آري، إذ كانت من مواليد سويسرا، ولكن كل ما صدر عنها من التصرفات، يثبت بأنها من الذين عملوا طويلاً، وبإخلاص، في خدمة هتلر، وأن إقدامها على الخيانة هو احتمال ضئيل وأمر يصعب صدوره عنها، ولذا قرر (هايدريك) أن يسند إليها مهمة أخرى، تتوفر لها عوامل الثقة، وتترك الحرية كاملة لطبيعة هذه المرأة الشابة المتهورة. ونقلت (كارمن) إلى معسكر العمل الإجباري الشهير في (رافنسبروك) والذي كان يقع في شمال ألمانيا على بعد ثمانين كيلومتراً تقريباً من (برلين). وتم إدخالها إلى المعسكر في جو من المظاهر الخادعة وكأنها معتقلة سياسية، وكانت مهمتها العمل على إرسال المعلومات عن تصرفات

وأقوال النساء المعتقلات إلى رؤسائها، وكان من بين المعتقلات عدد من كبار عائلات شخصيات الحلفاء كابنة أخ الجنرال ديغول.

تعرفت (كارمن) في هذا المعتقل على (فريتز سوهرن) أحد أعوان هتلر والذي كان يقوم بعمل إدارة المعتقلات، وكان ذلك الرجل يتصف بكونه شرس الطباع، ومعقد، وجشع لتملك السلطة. ولعل الذاكرة تعي تماماً أقاصيص تلك الجرائم الرهيبة التي حدثت في معسكر (رافنسبروك) بحيث لا يتطلب الأمر إعادتها بالتفصيل، ولكن من المفيد أن يذكر بأن عدد اللواتي قضين أجلهن في هذا المعسكر الجهنمي قد وصل إلى ثمانين ألف امرأة تم اعتقالهن من أنحاء أوروبا الأربع، وأن خمسة آلاف من بينهن قد قضين أجلهن في غرفة الغاز، وكان (ايخمن) هو رسول الموت إلى هذا المعتقل.

تم تعيين (كارمن موري) كرئيسة لأحد قطاعات هذا المعتقل فيما بعد، وكان مركزها هذا مشجعاً لها لإشباع رغباتها السادية، وحبها للسيطرة وإرهاب الأخريات، والتمتع بمنظرهن وهن يرتعدن أمامها أو عندما كانت تجبرهن على الانحناء لها.

كانت (كارمن) أعجز من أن تقاوم نزواتها الوحشية القاسية والتي كانت السبب في تسميتها بـ «الملاك الأسود». وقد كانت تعمل على مساعدة الحرس للسيطرة على السجينات وانتزاع الاعترافات بطريقة الماء، وتتلخص هذه الطريقة بتقييد السجين على طاولة ثم غمر رأسه بسطل من الماء المتجلد حتى يدلي باعترافاته كاملة، وكانت تستخدم سوطاً من الجلد، تلهب به ظهور النساء المرهقات جداً، لحملهن على العمل الإجباري. وعندما تلقت ذات يوم أمراً بالتخلص من ثمانين امرأة تقريباً قضين أجلهن، عملت كارمن على سحبهن من شعورهن عند الإلقاء بهن.

قضت (كارمن موري) زهاء أربعة أعوام في هذا المعتقل، وهي تتجسس على السجينات، وتعمل على تعذيبهن وإرهاقهن، إلى أن وصلت القوات الروسية فحررت الأسرى. وكان (فريتز سوهرن) قد فر ومعه أكثر المسؤولين عن هذا المعتقل، لذا عملت (كارمن) على الاختفاء لمدة عدد من الأسابيع، غادرت بعدها المنطقة الروسية لتتقدم إلى السلطات البريطانية في (شورين) كي تبدأ في تنفيذ مخطط جديد، تهدف منه إنقاذ نفسها، وذلك بأن تضع إمكاناتها تحت تصرف القوات المهاجمة المنتصرة، بعد أن أدركت بأنه لا أمل من عودة رؤسائها القدامى، وانه ليس من الحكمة الانتظار طويلاً تحت رحمة الروس، كما أن الإنكليز أكثر تهذيباً ومرحاً.

كانت (كارمن) تمتلك في حوزتها جواز سفر فرنسي مزور، ولذا فقد كان من السهل عليها أن تصرح أمام الإنكليز بأنها إحدى المعتقلات السياسيات في سجن (رافنسبروك) وأنها إذ تتقدم لتضع خدماتها تحت تصرفهم، فإنها مدفوعة برغبتها في تقديم العون من أجل العثور على جلادي المعسكر الذين اختفوا جميعاً، وأن كل آمالها تنحصر في رؤيتهم وهم يتلقون أحكامهم لقاء ما ارتكبت أيديهم من الجرائم الوحشية. ولقد حامت الشكوك حولها في بادئ الأمر، كما يحدث عادة مع كل من يتجاوز الحدود الفاصلة بين البلاد المختلفة. ولكن الأمر انتهى أخيراً بتصديقها. وقد ذهل الجميع للمعلومات الغزيرة التي كانت تختزنها، حول أوضاع المسجونين والسجانين على السواء. ولذا قرروا الاستفادة منها، وباشرت عملها الذي استمرت به خلال خمسة أشهر مستفيدة من ذاكرتها القوية، مما جعل أحد ضباط الاستعلامات البريطانية يصف ذاكرتها العجيبة «بالصنف الدقيق» ذلك أنها كانت تتذكر جيداً الأسماء والصفات

والعلامات الفارقة لكافة رؤساء الغستابو، تقريباً. ويعود الفضل في اعتقال عدد كبير من زملائها السابقين، ومنهم ممن كان يعمل معها في (رافنسبروك) إلى ما قدمته من إرشادات ومعلومات.

دخلت (كارمن) ذات يوم إلى القيادة، وصرحت بهدوء وبساطة:

ـ «لقد عثرت على (فيشر) وهو يعمل تحت اسم مستعار، في قرية تقع على مقربة من (ميندن). وكان فيشر طبيباً قديماً، من أطباء النازي، اكتسب شهرة كبيرة في مجال التعذيب، والتشويه والقتل، عندما كان يقوم بتجاربه الشيطانية على المساجين التعساء.

وصعد رجال المباحث البريطانيين ومعهم كارمن على متن إحدى السيارات السريعة، وذهبوا إلى القرية التي كان يختفي فيها الطبيب، والذي أصاب الإرهاق ذاكرته، وأمكن افتعال حادث رسمت خيوطه مسبقاً مما دفع بالطبيب لمغادرة مخبئه، ولقد ارتسمت علامات الرضى واضحة على وجه (الملاك الأسود) وهي ترى ذلك الرجل الذي كان هدفاً يبحث عنه المباحثيون، يقع تحت قبضة رجال المخابرات البريطانية.

وفي يوم آخر، كان على (كارمن) أن تقوم بمرافقة ضباط الاستخبارات البريطانية إلى معسكر (لوفتوف) المشهور لرؤية المعتقلين والتعرف على المجرمين فيه.

ومرت بصلف وكبرياء وهي تجتاز ـ غرفة العمليات ـ القديمة، حيث كانت تبدو على سيماء النساء والرجال إمارات البؤس والشقاء، وفجأة لمحت إحدى الفتيات وهي تدفع بورقة مطوية إلى رفيقتها الجالسة مواجهتها على الطرف الآخر من الطاولة، وبحركة رشيقة كالبرق أمسكت (كارمن) بالورقة وفتحتها وقرأت الكلمة الوحيدة التي كتبت بالألمانية «يهودية».

ـ إذاً فأنا يهودية! ها؟... هذا ما نطقت به (كارمن) وهي توجه حديثها إلى الفتاة، وامتدت يدها بسرعة الأفعى، لتضرب وجه الفتاة الصبية بين عينيها، فوقعت المسكينة إلى الأرض مغمية عليها، قبل أن يتمكن أحد من الإسراع للتدخل، وانهالت (كارمن) عليها بسيل من السباب باللغة الألمانية، إلى أن ركلت وجه المسكينة ركلة قوية بضربة من حذائها.

ولكي يتحقق القدر المحتوم، تغلبت هذه العاطفة السادية على ما تظاهرت به (كارمن) ولم تتمكن من كبح جماح نفسها فقادتها عاطفتها إلى الضياع، ذلك أنها ذات يوم وبينما كانت تقوم بمرافقة إحدى الدوريات الآلية من منظمات الاستخبارات البريطانية، فوجئت عندما شاهدت امرأة من اللواتي كن يعملن في أجهزة الاستخبارات الألمانية في (رافنسبروك) فانحنت بقوة إلى الأمام وأدارت مقود العربة مما جعلها تنحرف عن الطريق لتصعد إلى الرصيف فتقف على مسافة قريبة من المارة الذين أصابهم الذهول، وقفزت (كارمن) خارج العربة لتقف أمام إحدى النسوة وتهتف في وجهها بلهجة ظافرة:

ـ بينز دوروفي بينز... وتسمرت هذه بمكانها وقد أذهلتها المفاجأة، فتجمد الدم في عروقها من الذعر ولم تتمكن شفتيها من النطق إلا بكلمة واحدة: موري.

لقد كان في موقف المرأة الخائفة ما يستدعي من السلطات الإنكليزية التفكير في أمرها ذلك أنهم كانوا يعرفون تماماً شهرة الكوارث التي سببتها هذه الحارسة القديمة في معتقل (رافنسبروك) ولكن ما هو سبب الرعب الذي ظهر على وجهها وهي تقابل (كارمن موري) وهي إحدى المعتقلات، حسبما ادعت في هذا السجن الرهيب؟...

وخضعت (بينز) إلى استجواب دقيق وبدأ الضوء يكشف عن الحقيقة التي بدأت تظهر بوضوح رويداً رويداً ولم ينقض وقت طويل حتى أمكن جمع مصنف ضخم وتفصيلي عن الأعمال المريعة التي زاولتها (موري) في نهاية الفترة الأخيرة التي قضتها في السجن لتعمل في الجاسوسية وتعذيب المعتقلين والتي كانت قد ابتدأت في يوم من أيام الآحاد لعام 1938 عندما وصلت إلى باريس لتعمل في الجاسوسية للكشف عن أسرار خط ماجينو. وعند ذلك قررت سلطات (الاستخبارات البريطانية) بأن تتوقف عن استخدام (كارمن) لأنه لم يعد لخدماتها أية فائدة. ولذا تم اعتقال هذه المغامرة العالمية التي تعرف كل أسرار مهنة الجاسوسية والتي كان البحث عنها هدف قوات الحلفاء، بالإضافة لأولئك الأشخاص الذين أضرت بهم وأوقفتهم في المآزق المهلكة، لا سيما وأن إضبارتها السوداء تزيد عن إضبارات المعتقلين الآخرين.

وهكذا ألقي «بكارمن» لتنضم إلى زملائها من مجرمي الحرب والذين ألقي بهم في سجن «التونا» في «هامبورغ».

تم تقديم «كارمن» للمحاكمة ومعها خمسة عشر متهماً آخر إلى المحاكمات التي ابتدأت في «هامبورغ» بتاريخ الثالث من كانون الأول (ديسمبر) عام 1946 لمحاكمة مجرمي الحرب وكانت الاتهامات الموجهة إليهم هي ارتكاب الجرائم ضد أسرى الحرب من الحلفاء بدءاً من تعريضهم للتعذيب الوحشي ونهاية بالموت. ولقد ظهرت «كارمن» في بداية الأمر وكأنها واثقة من نفسها ولكن هذه الثقة بدأت تتلاشى كلما تراكمت البراهين أمامها بحيث بدأت تفقد بالتدريج السيطرة على أعصابها إلى أن وصل بها الأمر في إحدى اللحظات أن تتخلى عن هدوئها وتصرخ في وجه إحدى الشهود الذين اتهموها بأنها

قامت بإعطاء الحقن، الورقات، القاتلة إلى اليهود وكانت هذه الشاهدة فتاة فرنسية اسمها «فيوليت لو كوك» لتقول لها كاذبة إن كل أقوالك كاذبة من أولها حتى آخر حرف فيها، إن كل أقوالك كاذبة.

وعند ذلك هددها رئيس المحكمة بإخراجها من القاعة إذا لم تحافظ على الهدوء.

في ربيع عام 1947، أعيدت «كارمن» مرة أخرى إلى سجن «التونا» ومعها خمسة نساء بعد أن صدر عليهن جميعاً الحكم بالموت، وأغلق عليها مزلاج باب زنزانة الموت.

بما أن «كارمن» من مواليد «سويسرا» ولذا فقد كانت تتمتع بجنسية هذا البلد، ولقد صرحت بذلك أثناء محاكمتها عندما ذكرت بأن أباها من اتباع مذهب «كالفن» المتعصبين كما وجهت بواسطة القنصلية السويسرية في «هامبورغ» نداءً مستعجلاً للحكومة السويسرية تطلب التدخل لتأجيل تنفيذ حكم الإعدام ريثما يتاح لسلطات الحكومة في «برن» دراسة وضعها دراسة دقيقة. ولكن هذا الطلب لم يفدها في شيء ذلك أنها أبلغت في 8 نيسان (ابريل) أي بعد إصدار الحكم عليها بخمسة أيام فقط، بأن طلبها قد رفض بحثه.

واستقبلت هذا الخبر ببرود، وبدا على شفتيها حركة تنم عن القسوة، كما بدا عصب صغير يرتجف ارتجافاً خفيفاً من تحت إحدى عينيها، وبقيت صامتة وهادئة لثوان عديدة خيل إليها أنها دهر طويل إلى أن قالت أخيراً، بصوت أجش وخافت: إنهم لن يشنقوني، إنهم لن يتمكنوا من شنق «كارمن موري».

ورسمت «كارمن» إشارة الصليب على صدرها، وجلست على فراش زنزانتها القاسي بعد أن تركتها الحارسة التي حملت إليها هذا

النبأ، وفي ذلك اليوم نفسه طلبت «كارمن» أن يحضروا إليها حذاء غرفة النوم وكانوا في كل مساء يقومون بسحب ملابس السجناء، ولكنهم في هذه المرة الوحيدة وبعاطفة طيبة وجدوا العذر لها فلبوا رغبتها، وفي صباح اليوم التالي، قبل الفجر، نظرت رئيسة الحرس من كوة باب زنزانة «كارمن» فصدمها منظر ما وقعت عليه عيناها إذ رأت وجه «كارمن» وقد علته صفرة الموت فأسرعت إلى الداخل، وكان الجسم الممدد على الفراش قد فارق الحياة وهكذا أدرك الموت «كارمن» الفاتنة الجاسوسة، والتي حكم عليها بالموت، فأخطأها في عام 1940، لكي تستقبله بملء إرادتها... وكانت قد انتحرت بعد أن قطعت شرايين يديها بواسطة شفرة حلاقة كانت قد خبأتها بين طبقات نعل حذائها. وبدمها التي أهرقته بيدها تمكنت كارمن من تطهير نفسها.

مسز كارون(*)
(Karoon)

(-   )

هي إحدى عميلات المخابرات الألمانية في مكتب المخابرات البريطانية في مصر.

هذا، ولما كان الظلام قد بدأ يخيم على الحقول المحيطة بالمعادي، وعلى الضوء الضعيف المتسلل من خلال الأشجار انطلق بعض الباعة الجوَّالة يشقون طريقهم عائدين من المدينة إلى قراهم القريبة. وفجأة وقفوا في أماكنهم مرهفين السمع، فقد طرق سمعهم صوت خافت لاهث رددته الحقول الموحشة، صوت رجل يستغيث بلغة أجنبية لا يفهمونها. وأسرع الرجال نحو مصدر الصوت حتى إذا ما أشرفوا على المكان سائرين على ضوء بطارية كانت في يد أحدهم، صاح أحدهم أسفاً: يبدو أننا تأخرنا. لقد لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة. إنني أعرف علامات الموت.

وأخذ الرجال ينعمون النظر على ضوء البطارية في الجثة الملقاة

(*) المرجع: سعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». ص76 ـ 80.

في حفرة واسعة، وتبادلوا النظرات في حيرة. وقبل أن يتكلم أحدهم رن في آذانهم صوت آخر أكثر خفوتاً يستغيث، صوت نسائي هذه المرة. وشعروا بقلق مبهم يسيطر عليهم، واندفعوا نحو مصدر الصوت الجديد على ضوء البطارية، حيث رأوا جسداً ملقى على الأرض يئن ويتأوه. وما لبث أن صاح أحدهم: (إنها امرأة). وصافح أعينهم جمال رائع لامرأة في مقتبل العمر، مزقت ملابسها فبدا جسدها الفاتن ناصع البياض، وقد قيدت يداها وقدماها حتى أصبحت عاجزة عن الحركة تماماً. وتنبهت المرأة عندما أحست بأحد الرجال يقطع قيودها بمطواة وهتفت بالعربية بلكنة أجنبية (الحمد لله فين كارون... فين كارون؟).

ونظر الرجال بعضهم إلى بعض، ثم سألها واحد منهم في تردد:

ـ هل تقصدين الرجل الذي يرقد في الحفرة؟

ـ نعم، إنه زوجي كارون موظف في البنك البلجيكي وأنا مدرسة في الليسيه.. نحن من بلجيكا ونقيم في المعادي من زمان...

وهز الرجال رؤوسهم إشفاقاً، وانحنوا يرفعون السيدة من الأرض، بينما أسرع واحد منهم يبلغ البوليس. ولم تمض دقائق حتى كانت سلطات التحقيق كلها هناك. وبعد أن ألقينا نظرة فاحصة على المكان أوصلنا مسز كارون إلى بيتها وتركناها حتى تستعيد رباطة جأشها وتفيق من الصدمة التي سببتها لها وفاة زوجها. وتبين عند التحقيق أن جيوب سترة كارون وبنطلونه مقلوبة وفارغة تماماً، كما وجدت بقعاً من الدماء قد لطخت بعض الأوراق التي تركها القاتل في جيب سترته لعدم أهميتها بالنسبة إليه. وبدأنا التحقيق مع مسز كارون بعد أن تمالكت نفسها وسألها المحقق:

ـ ما سبب ذهابك إلى خارج المعادي أنت وزوجك؟

ـ كانت لي طفلة صغيرة، خطفت منذ سنتين، ومن وقتها وأنا دائمة البحث عنها في كل مكان، والأمل يراودني في أن أجدها يوماً ما. وفي أثناء عودتنا إلى البيت، وكنت أنا التي أتولى قيادة السيارة، فوجئنا ببعض قطاع الطرق يهاجموننا ويستولون على كل ما كان معنا. ولم يكتفوا بهذا بل قتلوا زوجي وألقوه في الحفرة. ثم اتجهوا نحوي فقاومتهم فقيدوا يدي وقدمي حتى لا أستطيع مقاومتهم ومزقوا ملابسي....

وتوقفت عن الحديث، وبدا الارتباك واضحاً عليها، وأرخت جفنيها، وفهمنا، وتركناها لحظة حتى تستعيد هدوءها. ورحنا نسأل الشهود، وقدم أحد المزارعين وقال:

ـ لقد رأيت رجلاً وامرأة يمتطيان جوادين في نفس مكان الحادث قبل وقوعه بأربع وعشرين ساعة.

وأدار المزارع رأسه نحو مسز كارون ثم قال:

ـ وأستطيع أن أؤكد أن المرأة التي رأيتها هي هذه السيدة بنفسها.

وتبعت هذه الشهادة شهادة كثيرين من الأهالي، فأجمعوا كلهم على أنهم شاهدوا مسز كارون مع رجل آخر غير زوجها قبل وقوع الحادث بيوم. ولم يكن غريباً أن يتعرف عليها المزارعون. فقد كان جمالها الخلاب المثير من النوع الذي يدير الرؤوس ويعلق بالذاكرة، كما كان شعرها الذهبي وقامتها الهيفاء مثيرين للانتباه. وكانت مسز كارون تستمع إلى هذه الشهادات دون أن تعيرها انتباهاً ولكننا اهتممنا بها، وعبرنا عن اهتمامنا هذا بأن سألناها:

ـ ماذا كنت تفعلين في هذا المكان قبل وقوع الحادث بيوم؟

ـ كنت أتنزه أنا وزوجي، فقد اعتدنا أن نركب الخيل ونتريض في الحقول من وقت لآخر.

وجاءت أقوالها متضاربة مع أقوال الشهود الذين رأوا جثة زوجها وأكدوا أنه لم يكن الرجل الذي كان معها. وبدأنا نضيق ذرعاً بهذه الأقوال المتضاربة وبالشبهات التي بدأت تحوم حول مسز كارون. ورأيت من ناحيتي أن أتحرى عن ماضي هذه المرأة الفاتنة. ولم ألبث أن اكتشفت أن مسز كارون هي ثالث زوجة لكارون الذي يكبرها بعشرين عاماً، وكان في الثامنة والأربعين بينما كانت هي في الثامنة والعشرين، وأن لكارون ولداً من زوجته الأولى اسمه (جاك) في السادسة عشرة يقيم معها ويتعلم في كلية فيكتوريا. واستدعيت هذا الولد واستجوبته، فقال لي إن والده وزوجة والده كانا دائمي الشجار، ولذلك كان أبوه لا يبقى في البيت معظم النهار والليل. وقال أيضاً إنه كثيراً ما كان يرجع من المدرسة مبكراً فيجد مع زوجة أبيه رجلاً إنكليزياً اسمه (مستر سميث) لا يعرف عنه شيئاً سوى أنه يقيم في بنسيون في المعادي. وقبل وقوع الحادث بيومين وفقت إلى العثور على صورة له، وعرضتها على الشهود الذين قالوا إنهم رأوا مسز كارون تتنزه في الحقول مع شخص آخر غير زوجها فإذا بهم يتعرفون جميعاً على الصورة قائلين إنها للرجل الذي رأوه معها.

واكتشفت أيضاً أن مسز كارون كانت تشتغل بعمل إضافي بعد الظهر في مكتب المخابرات البريطانية في المعادي.

وسمعت عدة قصص وشائعات عن مسز كارون.. شهد صيدلي قريب من بيتها أنها ابتاعت منه منذ يومين سماً لقتل الفئران، وشهد بعض الجيران بأنها كانت تستعد للفرار، ونصحني بعضهم بفحص

حساب زوجها القتيل في البنك لأنه سيتبين لي من هذا الفحص أنه قد سحب مبلغاً كبيراً قبل مصرعه، وأنها هي التي حرضته على ذلك. وبدأت أقتنع بأن لها يداً في الجريمة، وعدت أحقق معها من جديد وأسألها مرة أخرى:

ـ من هو ذلك الرجل الذي كان يركب معك جواداً قبل الحادث بيوم؟

ـ إنه زوجي.

وواجهتها بما علمته من أن الرجل كان (سميث)... فأنكرت وأصرت على إنكارها وكان واضحاً أن أعصابها قد بدأت تثور من لهجة حديثها معي. ولكنني ما زلت بها حتى هدأت تماماً، واعترفت بوجود علاقة بينها وبين سميث، ولكنها نفت وجود أية صلة بين هذه العلاقة وبين قتل زوجها، وأكدت أنه رغم الخلاف الذي كان بينها وبين زوجها فإنها لم تفكر يوماً في قتله. وأمسكت بهذا الخيط ورحت أستدرجها حتى فقدت السيطرة على أعصابها واندفعت تجهش بالبكاء.

وأخيراً رفعت عينيها المقرحتين من البكاء وقالت لي:

ـ سأعترف لك بكل شيء. أنا جاسوسة أعمل لحساب المحور، وسميث كذلك جاسوس. وكنت أسرق الخطط والأسرار الحربية مستغلة عملي في المخابرات البريطانية، ويتولى سميث تبليغها بوسائله السرية الخاصة إلى برلين. ثم اكتشف زوجي يوماً الحقيقة التي كنت أجاهد وأستميت لإخفائها عنه. ومن هنا كان منشأ الخلاف بيننا، وطلب مني التوقف عن العمل، وكان لفرط حبه لي لا يقدم على إيذائي ولا يقوى في الوقت نفسه على تحمل عبء القلق علي والخوف على مصيري، وعبثاً حاولت التوقف عن العمل، فقد أبى

سميث وهددني بالقتل.. وازداد الخلاف بيني وبين زوجي.. إلى أن كان يوم الحادث.. لم يكن هناك قطاع طرق كما قلت.. ولكن سميث كان يعرف دائماً خطواتي، ويعرف إلى أين أذهب، وهو الذي كان معي فعلاً في اليوم السابق.. وأقسم لك أنني لم أكن أعرف على الإطلاق ما دبره للخلاص من زوجي بعد أن علم أنه كشف سرنا وأنه مصر على توقفي عن العمل. وقد فوجئت به أنا وزوجي ونحن عائدان ورأيته ينقض على زوجي كالوحش الضاري ويقتله أمام عيني وهو يقول لي إنه فعل ذلك لسلامتي.. وثرت في وجهه وأبديت له فزعي واستنكاري لفعلته وأكدت له أنه لا يمكنني أن أتعاون بعد ذلك مع قاتل زوجي، فإذا به يثور علي ويمزق ملابسي ويقيدني من يدي وقدمي ويتركني على الحال التي وجدني عليها الفلاحون.. ثم هرب ولا أعرف أين هو الآن.

وبعد هذا الاعتراف كان علي أن أجد سميث قبل أن يتمكن من الفرار إلى الخارج ولم أستطع العثور عليه رغم الجهود الذي بذلتها. وأخيراً فكرت في حيلة استدرجتهُ بها.. أذعت في الصحف أن مسز كارون قد قررت أن تعترف بكل شيء في اليوم التالي وأن اعترافها سيؤدي إلى القبض على القاتل المجهول.

وتربصت أنا ورجالي حول بيت مسز كارون، وبالغنا في إخفاء حركاتنا. وحل الظلام، ودقّت الساعة الثانية صباحاً، وإذا بأعيننا تستقر على شبح يتسلل نحو البيت في خفة وسرعة وهو يجيل عينيه هنا وهناك.

وتوقف عند نافذة أرضية وراح يعالجها.. وما كاد يفتحها ويقفز إلى الداخل حتى كنا قد أطبقنا عليه.

سميث وهددني بالقتل.. وازداد الخلاف بيني وبين زوجي.. إلى أن كان يوم الحادث.. لم يكن هناك قطاع طرق كما قلت.. ولكن سميث كان يعرف دائماً خطواتي، ويعرف إلى أين أذهب، وهو الذي كان معي فعلاً في اليوم السابق.. وأقسم لك أنني لم أكن أعرف على الإطلاق ما دبره للخلاص من زوجي بعد أن علم أنه كشف سرنا وأنه مصر على توقفي عن العمل. وقد فوجئت به أنا وزوجي ونحن عائدان ورأيته ينقض على زوجي كالوحش الضاري ويقتله أمام عيني وهو يقول لي إنه فعل ذلك لسلامتي.. وثرت في وجهه وأبديت له فزعي واستنكاري لفعلته وأكدت له أنه لا يمكنني أن أتعاون بعد ذلك مع قاتل زوجي، فإذا به يثور علي ويمزق ملابسي ويقيدني من يدي وقدمي ويتركني على الحال التي وجدني عليها الفلاحون.. ثم هرب ولا أعرف أين هو الآن.

وبعد هذا الاعتراف كان علي أن أجد سميث قبل أن يتمكن من الفرار إلى الخارج ولم أستطع العثور عليه رغم الجهود الذي بذلتها. وأخيراً فكرت في حيلة استدرجتهُ بها.. أذعت في الصحف أن مسز كارون قد قررت أن تعترف بكل شيء في اليوم التالي وأن اعترافها سيؤدي إلى القبض على القاتل المجهول.

وتربصت أنا ورجالي حول بيت مسز كارون، وبالغنا في إخفاء حركاتنا. وحل الظلام، ودقّت الساعة الثانية صباحاً، وإذا بأعيننا تستقر على شبح يتسلل نحو البيت في خفة وسرعة وهو يجيل عينيه هنا وهناك.

وتوقف عند نافذة أرضية وراح يعالجها.. وما كاد يفتحها ويقفز إلى الداخل حتى كنا قد أطبقنا عليه.

وكان هو (سميث) وكان مسلحاً بمسدس وخنجر وحاول الإنكار. ولكنه اضطر إلى الاعتراف بكل شيء في النهاية أمام مواجهة مسز كارون له.. ودفع الاثنان الثمن المحتوم على كل جاسوس.. حياتهما.. بالإعدام.

كروتروث هلكر(*)
(Krotroth Halker)
(-   )

جاسوسة أميركية وإسرائيلية تزوجت من الطيار العراقي شاكر يوسف ثم قتلته.

كانت إحدى عميلات الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية. كانت تدير نادي الضباط الشرقيين في قاعدة التدريب الأميركية في فلوريدا، حيث كان يتدرب ثلاثة من ضباط الطيران العراقيين وهم شاكر يوسف، وحامد الضاحي، ومنير روفا. وقد أصبح هؤلاء الضباط الثلاثة هدفاً لمخطط واسع اشتركت في إعداده وتنفيذه الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية معاً. ولم يكونوا ليعلموا أن الخطة التي تشملهم تهدف إلى سرقة طائرة سوفياتية الصنع من طراز «ميغ 21» التي أدهشت مميزاتها الدوائر العسكرية في حلف شمال الأطلسي، وخاصة الولايات المتحدة وسببت لسلاح الطيران الإسرائيلي القلق الدائم. وكانت هلكر سيدة جميلة تشرف على نادي الضباط الشرقيين في قاعدة التدريب الجوية هذه، عملت في السابق

(*) **المرجع**: نزار عمار. «الاستخبارات الإسرائيلية» ص53 ـ 54. وسعيد الجزائري. «المخابرات والعالم». ص428 ـ 432. ود. صالح زهر الدين «قاموس المخابرات والتجسس». الجزء الحادي عشر. ص133 ـ 134.

كممرضة في المستشفى الأميركي في النمسا، وقامت الاستخبارات الأميركية بنقلها إلى فلوريدا. واستطاعت فيما بعد استدراج الطيار العراقي شاكر يوسف الذي تزوجها واصطحبها معه إلى العراق عند انتهاء دورته.

وأثناء إقامة الطيارين الثلاثة في الولايات المتحدة حاولت الاستخبارات الأميركية تجنيدهم للعمل لصالحها. واستخدمت كل وسائل الإغراء بالمال والجنس بعلاقته. فوقع في مصيدتها الطيار العراقي منير روفا، رغم كل التحذيرات التي نبهه لها رفيقاه. ورغم جميع الشكوك، إلا أن الاستخبارات الأميركية ـ المتعاونة مع الاستخبارات الإسرائيلية في هذه القضية ـ وضعت حداً لهذه الشكوك تحسباً لمضاعفاتها، فأوعزت إلى السيدة «هلكر» بالقيام بالواجب الأخير لمهمتها، فأطلقت الرصاص على زوجها الطيار شاكر يوسف ووضعت جثته تحت السرير وفتحت أجهزة التكييف لكي لا تنبعث رائحة الجثة واستقلّت أول طائرة إلى الولايات المتحدة. كان ذلك في عام 1966.

كريستيانا سيزيكا
(Christiana Sizika)
(1951 - 1916)

إحدى الجاسوسات البولونيات لمصلحة المخابرات البريطانية، وقتلت في ظروف غامضة. كيف كان ذلك؟ وماذا عن مذكراتها؟

في سنة 1951 وجدت الجاسوسة البولونية الشهيرة كريستيانا سيزيكا التي كانت تعمل لمصلحة الانتلجنس سرفيس، صريعة في منزلها، ولا تزال الظروف التي أحاطت بمقتلها سراً مجهولاً حتى الآن..

وفي ما يلي القسم الذي وجد من مذكرات الجاسوسة القتيل:

فرسوفيا في كانون الثاني (يناير) 1936

فزت اليوم في مباراة الجمال في فرسوفيا، وهكذا أصبحت ملكة أتربع على عرش جمال بولونيا، وطني، وليس من شك في أن هذا الفوز سيكون له أثره على أصدقائي وأحبائي، لقد هنأني كارل قائلاً: كريستيانا، لشد ما أنا خائف من فوزك هذا، ومن أنا حتى تكون زوجتي ملكة؟.

(*) **المرجع**: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. ص58 - 66.

ولشد ما طرب قلبي لسماع هذه الألفاظ البديعة من فم هذا الفتى الذي تتملقه فتيات فارسوفيا، إنني لسعيدة وفخورة بلقبي الجديد.

فرسوفيا في شباط (فبراير) 1936

تعساً لهذه الحياة، إني لأكرهها وأود أن أختفي من مسرحها، كنت من شهرين أو أقل فتاة عادية لي أصدقاء أعتز بهم، بل كنت ولا زلت ملكة جمال فارسوفيا.

وتعساً للألقاب وزيفها، لقد هجرني كارل خطيبي لأن أمي يهودية رغم عراقة أصل أبي، أهذه جناية تحاسب عليها فتاة مثلي، لقد شاعت في بولونيا الآراء الألمانية الهتلرية الهدامة فإذا بالرجال يبحثون عن فتيات من الجنس الآري السامي في نظرهم، وهكذا فسخت خطبتي من كارل.

فرسوفيا في آذار (مارس) 1937

عدت الآن مع زوجي من المسرح، لقد كانت مسرحية لا طعم لها، ضحك لها زوجي المحترم طويلاً رغم عدم فهمه لها، وقد تأكدت من ذلك عندما سألني بعد الفصل الثاني عن حوادث الفصل الأول.

إنني لست سعيدة بزواجي الذي أرغمتني الظروف على قبوله، بعد أن هجرني كارل.

لقد كان علي أن أثأر لكرامتي بعد أن فسخت خطبتي الأولى، ولو علمت أن الرجال تافهون إلى هذا الحد لما أقدمت على هذه الفعلة التي أجني ثمراتها، حياة راكدة ركود الماء في حفرة صغيرة.

فرسوفيا في تشرين الأول (اكتوبر) 1937

حاولت كثيراً أن أقنع بما قدر لي من فشل في زواجي، ولكني بدأت أحتقر نفسي لرضائي بالحياة مع رجل أتظاهر له بالحب بينما أنا أكرهه.

إنها حياة باردة لا حرارة فيها، فهل أنا امرأة شريرة، أم أن الحياة كلها مخاتلة ومخادعة؟

باريس في كانون الأول (ديسمبر) 1937

عدت الآن من حفلة الكونتيس دي سي، لقد كانت حفلة رائعة رقصت فيها إلى درجة الإعياء، وضحكت فيها كثيراً من هؤلاء الشيوخ الفرنسيين الذين يتقنون فن الغزل ويعرفون كيف يمسكون أذن المرأة بألفاظهم الرقيقة المعسولة، وأي فارق بين حديث مسيو رينيه الفرنسي المهذب الذي يعرف كيف ينتقي ألفاظه إذا ما قارنته بزوجي الفظ الذي تركته في فارسوفيا.

القاهرة في شباط (فبراير) 1938

تصالحت مع زوجي، وسافرنا إلى الشرق وها نحن في القاهرة.

وقد نشرت الصحف خبر وصولنا إليها، ونزلنا في فندق شبرد، والقاهرة مدينة جميلة أكاد أحبها فهي أول مدينة شرقية أراها في حياتي.

يا للشمس الساطعة والدفء اللذيذ، إننا في فارسوفيا في مثل هذا الوقت نعيش على الجليد، ولا نرى الشمس إلا خلف السحب الرمادية.

غينيا في تشرين الأول (اكتوبر) 1939

سافر زوجي إلى بولونيا ليلبي دعوة الوطن وقتل في أول معركة له مع الألمان البرابرة.

إن الحياة بغيضة مقيتة، كم أكره هؤلاء الألمان، لقد أفسدوا علي حياتي مرة ثم أخرى وكأني بهم قد شهروا الحرب على كريستيانا.

لسوف أنتقم منكم أيها الوحوش.

استانبول في كانون الثاني (يناير) 1940

إن للشرق سحره وجماله.

أما الحياة فيدعون أن فيها شيئاً اسمه السعادة.

يا للسخرية، لقد أصبحت جاسوسة أحارب الألمان الذين أفقدوني خطيبي الأول، وزوجي.

عدت اليوم إلى استانبول بعد رحلة شاقة عبر أوروبا الوسطى، بعد أن أديت مهمتي الأولى في إنقاذ بعض الأسرى البريطانيين.

بيروت في آذار (مارس) 1940

ليس من حقي أن أكتب مذكرات عن نفسي.. نعم فإن هذا خطأ لا يجب أن تقع فيه جاسوسة، وإن أية قصاصة تكتب قد تكون سبباً لإدانتها في يوم ما.

ولكني سأترك هذه المذكرات هنا.

لقد سافرت إلى بولونيا أخيراً، وشاهدت منزل عائلتي وقد أصبح أطلالاً بعد أن هدمته القنابل النازية.

لقد مات أبي تحت الأنقاض، وفقدت بفقده كل شيء.

ـ تباً للوحوش الضارية العمياء، ما ذنب رجل شيخ حتى يموت هذه الميتة الشنيعة تحت الأحجار.

لقد اعتقلني الألمان وكادوا يفتكون بي لولا جواز سفري السويسري المزور.

إنني أحارب أعداء وطني بكل الوسائل. بل إنني أقبل أخطر المهمات السرية لدحرهم.. ونجحت في أن أصبح جاسوسة ممتازة.

القاهرة في 14 شباط (فبراير) 1941

عدت اليوم إلى القاهرة بعد أن نجحت في مهمة عظيمة. لقد ساعدت رجال المقاومة في بولونيا على نسف أكبر مصنع للذخائر في البلاد وكوفئت على ذلك بإجازة طويلة قضيتها في القاهرة.

إنها أول إجازة أقبلها لإحساسي بالتعب والكلل من الجهد الذي أبذله في عملي.

تعرفت اليوم في حفلة راقصة بفندق شبرد على الكابتن بوييل وهو من مواطني. إنه شاب وسيم رائع في الجيش البولوني الذي يحارب في الصحراء الغربية.

إنني في حاجة إلى من يذكرني بوطني. سأرى الكابتن غداً في مينا هاوس. نعم سأراه.

القاهرة في 26 شباط (فبراير) 1941

لقد تعرفت على كثيرات من السيدات المصريات والأوروبيات ممن يعشن في مصر، ولكن أحب صديقاتي هي مدام مادلين.

إنها فرنسية جميلة وديعة.

وزوجها المصري ذو مكانة ممتازة في المجتمع.

تحدثت إلى مادلين فإذا بها تقص علي قصة هي أقرب ما تكون لقصة حياتي. لقد أحبت شاباً فرنسياً واختلفا، وتقدم المصري لخطبتها فقبلته زوجاً حلاً للموضوع.

كانت تبكي وهي تروي قصتها، وسألتها: هل أنت سعيدة مع زوجك هذا؟.

فقالت: إنه طيب القلب، وهو عريق الأصل فو ابن أحد الوزراء السابقين، ثم هو يحبني.

فاندفعت أقول لها: يا للمراوغة، لشد ما أعجب بضعفك هذا، أتقبلين العيش في كنفه لمجرد أنه يحبك، وأنت أليس لروحك حقوق عليك، ثم ألا تخافين الزمن، إنك اليوم فاتنة يا صديقتي وفيك كل ما يحب الرجال، فلماذا تعيشين ذليلة أسيرة تقاليد واهية.

وافرضي أنه هو الذي كان في موقفك، أكان يرضى الحياة معك.

إن الرجال أنانيون يحبون أنفسهم، يعطونها ما لا يرضون لها، فالرجل يجري هنا وهناك باحثاً عن متعته ولا يعتبر نفسه متجنياً على امرأته.

أما نحن النساء فإننا نضحي بحياتنا في سبيل هؤلاء الأنانيين المستهترين.

أتدرين يا صديقتي، إنني أعتبر أية امرأة تقبل هذا الوضع، امرأة لا تعرف حقوق نفسها.

إن الرجال يعاملون المرأة معاملتهم لدمية ثمينة يلهون بها في

أوقات فراغهم وفاتهم أن لنا مثل حقوقهم، وأننا بشر مثلهم.

كوم امبو في 2 آذار (مارس) 1941.

عدت اليوم من كوم امبو بعد قضاء اسبوع في ضيافة صديقتي مادلين.

لقد بدأت مادلين تنظر إلى الحياة نظرة جديدة. لقد استيقظت روحها الحالمة، فإذا هي تشاركني أفكاري عن الرجال. لقد اختلفت مع زوجها عشر مرات في أسبوع واحد.

ولماذا اختلفت معه، لقد بدأت تأخذ لنفسها بعض الحرية التي يمرح فيها زوجها، وهذا يعجب الرجال.

وجدت خطاباً من الكابتن بوبيل يعاتبني فيه على إهمالي له طول المدة الماضية، رحماك يا ربي، لقد أصبح لحضرته علي حقوق. هذا هو الرجل.

القاهرة في 25 حزيران (يونيو) 1942

الحالة الحربية خطيرة جداً، والهزائم هنا وهناك، والعمل يحطم أعصابي، والقاهرة قد أصبحت عاصمة كئيبة والحياة فيها تسير على وتيرة واحدة مملة، وكأنها تسير على دقات طبل أجوف.

كنت أجلس اليوم بفندق مينا هاوس حين شهدت إحدى سيارات الجيب تصل إلى الفندق ويقفز منها الجنرال رتشي القائد العام بالصحراء الغربية.

لقد مر بي عابساً رغم أنه يعرفني، لا شك أن الحالة أسوأ مما كنت أتصور.

لقد قال لي أمس أحد الضباط من أصدقائي: كريستينا، لماذا

تبقين بالقاهرة والألمان على قيد خطوات منها.

أو تحبين قضاء فترة أخرى في أحد معتقلات النازي المريحة.

ذكرت هذا الحديث عندما رأيت قائد قواتنا بالقاهرة بعيداً عن قيادته، وشهدت زميلاً من المخابرات فسألته عن الخبر فقال ببساطة: لا تهتمي يا صديقتي إذا كان رتشي بالقاهرة فإن أو كنلك يتولى مكانه هناك.

وحياني ببرود وانصرف.

القاهرة في 25 تموز (يوليو) 1942

الجو هنا خانق، يشم المرء فيه رائحة البارود إذا ما جاءت الريح من الغرب، وقد أصدرت القيادة البريطانية بلاغاً قالت فيه كالعادة كل شيء هادئ في الصحراء الغربية.

ولقد طلب مني أن أستعد لرحلة طويلة، وألقتني إحدى الطائرات في جنوب فرنسا، وبدأت مهمة في بلاد الأعداء.

إن المخاطرة التي أتعرض لها تزيدني قوة، إنني امرأة قوية، فأنا أضحك كل يوم من عشرات الرجال، لقد أنقذت اليوم ثلاثة من الطيارين البريطانيين الأسرى.

لقد ظن أحدهم أنني أحاول إنقاذه لوقوعي في غرامه. إنه شاب أبله وقد قاسيت كثيراً في سبيل إنقاذه عبر الحدود الفرنسية.

القاهرة في كانون الأول (ديسمبر) 1942

قضيت عاماً حافلاً بالأحداث. لقد عملت مع رجال المقاومة الفرنسيين. ونسفت طرق مواصلات الأجلاف النازيين.

لشد ما أنا معجبة بالفرنسيين. لقد عشت مع رجل منهم كزوجته أمام الناس. وفي المساء كنت أصبح أختاً له. لقد جمع بيننا هدف واحد هو دحر الألمان.

لقد كان ألبير ـ وهذا اسمه ـ شاباً رائعاً.

وكنا نعيش في جو من التفاهم التام، نؤدي واجبنا ليلاً في الطرق المظلمة المرعبة، وكانت مهمته هي حمايتي أثناء قيامي بنسف الطرق والكباري والخطوط الحديدية.

وبعد أن شاركته هذه الخدمات الرائعة شاء سوء حظي أن أعتقل.

نعم، اعتقلني رجال الغستابو، وهرب ألبير كما تقضي تعليمات الجاسوسية الأولية.

واستمر التحقيق معي أسبوعاً ثم شهراً وأخيراً تقرر حجزي في أحد المعتقلات بتهمة الشك في سلوكي، والبحث عن اسمي في الكشوف السوداء.

لقد قالت لي جدتي يوماً: كريستيانا، إن عقلية الرجال تختلف وفقاً لجنسياتهم. فلو أننا طلبنا من أربعة رجال أن يتحدثوا عن الفيل لحدث ما يلي:

فالفرنسي سيؤلف قطعة رائعة من الأدب عن الفيل وصفاته، وجمال خرطومه.

أما الإيطالي فسيعود وبيده قطعة موسيقية تصور أنغامها هذا الحيوان العجيب.

والبريطاني سيقول في التو: الفيل هو حيوان من ذوات الأربع

وقد رآه جدي في الهند وفي أفريقيا.

أما الألماني فإنه يعد حاجياته قبل أن يجيب ويرحل إلى أفريقيا في رحلة علمية ليدرس الفيل في بيئته ويعود ليقدم إليك مجلداً ضخماً قائلاً هذا ما عرفته عن الفيل.

رحم الله جدتي فقد قالت الحق. وهكذا بقيت في المعتقل تحت رحمة الألمان حتى يبحثوا في سجلات الدول الخاضعة لهم عن فتاة تدعى كريستيانا غرفيل.

وأخيراً وفقت إلى الهرب بعد أن أقنعت ضابطاً نازياً أحمق أنني أحبه فأتاح لي الفرصة فانتهزتها وفررت.

والقاهرة لا تزال هي هي بفنادقها الفاخرة الفخمة التي يشعر فيها الإنسان بهدوء معابد الفراعنة. وإني لأحتاج إلى هذا الهدوء ولو إلى حين.

لندن في تشرين الثاني (نوفمبر) 1947

انتهت الحرب ومغامراتي فيها. لقد كانت أياماً فيها مرارة. وفيها عذوبة.

لقد اندحرت النازية التي أفقدتني خطيبي كارل.

ومنحتني الحكومة البريطانية أوسمة تشهد كلها بتقدير الإنكليز لجاسوستهم البولونية. وكوفئت أيضاً بوظيفة إدارية تدر علي بضع جنيهات شهرياً.

نظرت اليوم إلى المرآة لأرى وضع الأوسمة التي منحتها. فإذا بي أرى امرأة لا يمكن أن تكون بحال كونتيسة كريستيانا سيزيكا ملكة جمال بولونيا.

لقد ولى الشباب وإذا بالوجه الذي نال في يوم جائزة الجمال قد أصبح مرتعاً للتجاعيد التي أضفت عليه شيخوخة مبكرة صارمة.

وماذا أريد من جمالي القديم. هل سأتزوج مرة ثانية.؟

لا. فقد فات الوقت. ثم ان هذا العالم كله ليس فيه رجل يرضيني. ولن يرضى بي بعد الآن أي رجل.

إذن سأعيش في وحدة وعزلة.

كريستين غرانفيل
(Christine Granvill)
(1952 - 1915)

تعتبر كريستين غرانفيل من أهم عناصر الجاسوسية النسائية في النصف الأول من القرن العشرين، وقد بلغت مكانة هامة، واحتلت حظوة على جانب كبير من الأهمية لدى كبار قادة ذلك العصر، وكان من بينهم ونستون تشرشل نفسه، رئيس الوزراء البريطاني. فمن هي كريستين غرانفيل هذه؟ وماذا كان دورها؟ وكيف كانت نهايتها؟

يقول كيرت سنجر:

تعرفت على كريستين غرانفيل منذ كانت طفلة صغيرة. وكانت معرفتي الأولى بها عندما كنت مدعواً عند أبويها في عام 1933، وكانت في تلك الفترة فتاة بالغة على قسط كبير من الجمال، ذكية جداً، تفيض نشاطاً وحيوية. ثم أصبحت بعد ذلك واحدة من كبار جواسيس عصرنا الحاضر، وقد اعتبرتها كل من بولونيا وانكلترا كالهيرويين في المعركة الدائرة رحاها ضد النازية، ثم بعد ذلك تم تقسيم وتجزئة بلادها للمرة الرابعة في التاريخ، فعملت ضد

(*) المرجع: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ص417 - 439.

الكريملين. وقد تم تقليدها الأوسمة الإنكليزية، كما هنأها ونستون تشرشل شخصياً عندما قدم لها عبارات الشكر لما قامت به من الخدمات. وكان اسمها في بطاقتها الشخصية الحقيقية الكونتيسة كريستينا شبريك.

كان كل من له علاقة بالجاسوسية وممن عمل في أوروبا يعرف الفتاة الجميلة كريستين ذات الشعر الأسود. ولقد أصاب الذهول آلاف الأشخاص عندما عرفوا بمقتلها الذي وقع في لندن على أيدي رجل مريض جنسياً، كان يحبها لدرجة الجنون.

ولقد رفض عدد كبير من ضباط الاستخبارات تصديق هذه الرواية لتلك التمثيلية، ذلك أن المنظمات السرية للقوى الأجنبية قد عملت على التخلص من عدد كبير من العملاء باستخدام الأسلوب ذاته، فهل كانت كريستين غرانفيل ضحية جديدة من ضحايا حرب الجاسوسية؟...

بتاريخ الخامس عشر من حزيران (يونيو) عام 1952 وحوالي الساعة العاشرة والربع دخلت كريستين غرانفيل مبتسمة إلى فندق شيلبورن في لندن، وتمنى لها حارس الباب وهو رجل بولوني اسمه جوزيف كوجديكي ليلة سعيدة، وبعد ذلك وبينما كانت تصعد على أول درجات المصعد لتذهب إلى غرفتها دخل رجل بأقصى سرعة واجتاز البهو، وصرخ منادياً:

- كريستين، هل بإمكاني أن أراك؟...

- وعادت كريستين فهبطت السلم وتابع حارس المدخل الليلي عمله، بينما ذهب الرجل مع كريستين إلى زاوية من البهو ليتبادلا أطراف الحديث... ارتفع صوتها فجأة وهي تقول:

ـ دعني أنعم بالهدوء. . . خذوه عني. . . أنقذوني. . .

وأسرع الحارس الليلي للمدخل يرافقه رجلان آخران من مستخدمي الفندق ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان.

كانت كريستين قد تحطمت، بعد أن اخترق صدرها خنجر طويل بعمق كاف، وتمدد جسدها على الأرض، وهي تنزف دمها بغزارة، وقد صرخ قاتلها وهو ينظر إليها بينما كانت تلفظ أنفاسها:

«إني أحبها ـ وقد قتلتها ـ فاطلبوا الشرطة، ولننته بسرعة».

وفتش مستخدمو الفندق جيوبه فعثروا معه على مطرقة، ثم احتجزوه في إحدى الغرف واتصلوا هاتفياً بـ سكوتلنديارد ووصل اثنان من مفتشي قسم المباحث الجنائية بعد ذلك بدقائق قليلة، حيث بدأوا مباشرة طرح الأسئلة الرتيبة، ووضعت الأختام على غرفة كريستين ووضع الحديد في أيدي القاتل، واقتيد إلى مركز سكوتلنديارد حيث تم وضعه هناك بغية إجراء استجواب دقيق.

كان القاتل رجلاً قصير القامة، ذا عينين قاتمتي اللون وشعر أسود وجبهة عريضة، يرتدي ثياباً أنيقة، ويحمل معطفاً خفيفاً أسمر اللون. وكانت تدل هيئته على أنه مثقف، وقد صرح بلهجة مضطربة بأن اسمه دنيس جورج ميلدوني. وكانت إجاباته على بعض النقاط واضحة تمام الوضوح ولكنه كان يتهرب من بعض الأسئلة ويجيب إجابة غامضة، وكان من بعض إجاباته:

«إنني أعترف بأنني قتلت كريستين غرانفيل، وكنت أحبها كثيراً ومن أجل هذا قتلتها، ولن يستطيع أي إنسان الآن أن يتملكها، وإنني مستعد لدفع ثمن ما أقدمت على عمله، فلننته منه».

وتم اقتياد ميلدوني إلى زنزانته، وفي صباح اليوم التالي ابتدأ رجال سكوتلنديارد تحرياتهم.

ذهب رئيس المفتشين جورج جينيغ وبرفقته عدد من معاونيه إلى فندق شيلبورن. وصرح مدير الفندق ادغار ويلس بأن كريستين كانت تقيم في فندقه منذ عام 1945 أي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان مما قاله:

«إنها سيدة رصينة، أنيقة وذات ثقافة عالية. كانت رقيقة جداً. وإنني على معرفتي بها أستغرب في أن يكون لها أعداء أو خصوم».

لم تكن كريستين تقيم في الفندق بشكل دائم، بل كانت تتغيب في بعض الأحيان، ولمدة عدد من الأشهر، تقضيها في زيارة أقاربها المقيمين خارج انكلترا أو لكي تسافر كمضيفة على متن البواخر. وكان كافة أعضاء الفندق وعلى رأسهم المدير بصورة خاصة يمتدحونها ويفخرون بمعرفتها، كما كانت أقوالهم جميعاً متفقة على أنها كانت تتصرف في بعض الأحيان تصرفات غريبة وكأنها كانت تحاول إخفاء ماضيها. كما كانوا يتساءلون عن السبب الذي يدفع سيدة لها مثل قسطها من الثقافة في أن تزاول بعض الأعمال التي لا تتفق وإمكاناتها، كبائعة في متجر كبير مثلاً، وهي التي تتقن النطق بعدد من اللغات الأجنبية، كما قبلت العمل ذات مرة كسيدة مسؤولة عن إيداع المعاطف والقبعات في أحد الفنادق الفخمة.

كانت كريستين أثناء الاثني عشر شهراً التي سبقت وفاتها تعمل كمضيفة في الدرجة السياحية على متن البواخر المسافرة إلى أفريقيا الجنوبية ونصف الكرة الغربية والبحر الأبيض المتوسط. وكانت عندما تهبط في ميناء ساوثهامبتون القريب من لندن تتجه مباشرة إلى فندق

شيلبورن. وقد علم ضباط المباحث بأن كريستين كانت قد عادت من رحلتها التي سافرت فيها إلى جنوب أفريقيا قبل يومين من مقتلها.

وعلى ما يبدو فإن كل الأشخاص الذين كانوا يعملون في الفندق لا يعرفون أن كريستين كانت كونتيسة بولونية، وأنها سليلة عائلة عريقة في النبل، كما أنه لم يتعرف على شخصية القاتل أو كان شاهده قبل ذلك.

عمل المباحثيون بعد ذلك على تفتيش غرفة كريستين ووجدوا في الحقيبة التي أحضرتها معها من ساوثهامبتون الوثائق المتعلقة بعملها كمضيفة على متن البواخر، وكانت إحدى هذه الوثائق تدل على أن أقرب أقربائها إليها واسمه الميجور اندرو كنيدي مقيم في 23 الكسندر ستراس من عاصمة المانيا، وعندئذٍ عمل المفتش جينيغ على إرسال برقية فورية للإعلام بالحادث.

كما عثر ضباط سكوتلاند أيضاً على بطاقة سفر بالطائرة من لندن إلى بروكسيل وقد حدد تاريخ السفر عليها في اليوم التالي لوقوع الحادث، أي في يوم 16 حزيران (يونيو) وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة.

تابع رجال المباحث تحرياتهم مع مزيد من الدقة، ولم يتأخر بهم الوقت لكي يعثروا على ما أذهلهم. فلقد كانت تحتوي تلك الغرفة البسيطة على مجموعة ثمينة من الأوسمة الحربية. إذ عثروا على الصليب الحربي الفرنسي الذي لا يتم تسليمه عادة لأحد ما إلا نتيجة لخدمات استثنائية، وميدالية الملك جورج التي يتم تسليمها عند القيام بالأعمال الجريئة، ووسام الإمبراطورية البريطانية الذي لا يتم تقليده عادة إلا للقادة العسكريين من ذوي الرتب الرفيعة، وميدالية بولونية لم

تعرف هويتها وقيمتها. فكيف يمكن لسيدة أن تحتفظ في حوزتها على مثل هذه الأوسمة وهي تعمل كبائعة في المتاجر الكبرى، أو كمضيفة على متن البواخر؟.. وهل من الممكن أن تكون هذه الأوسمة لجنرال انكليزي؟...

لقد كان طبيعياً في أن يشعر أولئك المباحثيون بالذهول لأول وهلة وهم يشاهدون تلك الأوسمة، ولكن ومع تقدم التحريات، وكلما عملوا على فتح دولاب جديد، أمكنهم العثور على مزيد من الإيضاحات. فلقد وجدوا عدداً من رسائل الشكر بعثت بها إليها منظمات رسمية حكومية. ووجد المباحثيون بعدئذٍ الدليل على أن تلك الأوسمة كانت خاصة بكريستين فعلاً، وبأنها كانت مكافأة لها لقيامها بأعمال بطولية فذة.

كما عثر في حقيبتها على دفتر مذكرات، وفي الصفحة التي تحمل تاريخ 15 حزيران (يونيو) ـ أي في ذلك اليوم الذي وقعت فيه الجريمة ـ سطرت الكلمات التالية

عشاء مع ل. بوبييل وسونيا.

ولما كان اسم بوبييل مدرجاً في دليل الهاتف في لندن، فلقد عمل رجال المباحث على الاتصال به مباشرة، وكانت أقواله صريحة وذات فائدة، ولكنه أكد مراراً في أنه لا يمكنه أن يصدق بأن كريستين قد ماتت. لقد كانت تفيض نشاطاً وحيوية قبل ذلك بوقت قصير، وتناول معها طعام العشاء في ذات الأمسية في مطعم من المطاعم الإيطالية الواقعة في السوهو واسمه اسبيرانزا وتعني هذه الكلمة الأمل. كما كان معهما في تلك الأمسية صديقة مقربة إليهما واسمها سونيا. أما بوبييل فكان يعمل مهندساً للديكور، عرف بفنه ونجح في

عمله نجاحاً باهرا. وقد مضى على معرفته بكريستين حوالي سنتين. وكان مما قاله بوبييل:

إنني لا أفهم كل ذلك، ان كريستين امرأة فريدة في جمالها وسحرها، وفروسيتها وشجاعتها.

وسأله المفتش جينيغ:

ـ وماذا تعني بفروسيتها وشجاعتها؟... وهل تعرف أي شيء عن أوسمتها؟...

لم يكن بوبييل يعرف شيئاً هاماً عن ذلك، ولكنه سمع بأنها كانت تعمل أثناء الحرب مع عدد من حركات المقاومة، وأنها كانت تحمل رتبة ضابط في المنظمات السرية للاستخبارات، كما أنها تتقن عشر لغات وتتكلمها بطلاقة، وأنها لم تذكر شيئاً عن مغامراتها تلك، لأنها لم تكن راغبة إطلاقاً في أن يذكرها أحد بتلك الفترة من حياتها.

وسأل المفتش مرة أخرى:

ـ وهل تظن أن كريستين لا تزال تعمل في الجاسوسية؟... وهل تعتقد أنه من المحتمل أن تكون قتلت من أجل ذلك؟...

كان اسم ميلدوني جديداً على سمع بوبييل وذكر أنه لم يسمع باسم ذلك الشخص من قبل، كما أن كريستين لم تأت على ذكره مطلقاً.

لم يكن بوبييل على اطلاع بمشروع كريستين للسفر إلى بروكسل، وكان كل ما يعرفه أنها قالت بأنها ستذهب بعد عدة أيام على متن باخرة لزيارة وينشستر كاستل.

وبعد ذلك قام رجال سكوتلنديارد باستجواب سونيا ماستر التي كانت بحالة مماثلة لحالة بوبييل في اضطرابها نتيجة للصدمة التي

أصابتها على أثر حادثة القتل. واعترفت بأنها كانت قد تعرفت إلى كريستين منذ ستة أشهر عندما كانت تعمل هذه الأخيرة كمضيفة على متن إحدى البواخر. وتذكرت سونيا حدثاً طارئاً وقع أثناء سهرتهما في مطعم اسبيرانزا، فعملت على ذكره أمام الضباط وقالت بأنه قبل وصول بوبييل سرحت بنظرها بصورة عارضة إلى نافذة المطعم ولاحظت وجود رجل يقف في الخارج، وهو يراقبها هي وسونيا بنظرات ثابتة. ولفتت سونيا ماستر انتباه رفيقتها كريستين إلى وجود ذلك الرجل الفضولي، ولكن كريستين عملت على هز كتفيها علامة اللامبالاة، وعلقت على ذلك بقولها:

«عندما كان عمري اثني عشر عاماً أو ثلاثة عشر، أعطاني والدي بندقية الصيد، وأخذني معه لاصطياد الذئاب. وكانت الذئاب في تلك الفترة تهاجم بأعداد ضخمة، وشعرت في إحدى المرات بأنني فقدت حياتي عندما تقدم عشرة أو اثني عشر ذئباً من الذئاب الجائعة وعملت على الإحاطة بي والهجوم علي. ولكنني وضعت بندقيتي على كتفي وقتلتها.. جميعاً.. ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن وأنا لا أشعر بخوف من الرجال أو الذئاب».

وما أن وصل بوبييل وجلس إلى المائدة مع كل من السيدتين حتى اختفى ذلك الرجل الخفي. وتابع رجال اسكوتلانديارد تحرياتهم إذ لم يكن من السهل عليهم تصنيف أعمال تلك الجريمة ببساطة والاكتفاء بقصة غيرة الحب التي قام بها شخص غير متزن، إذ لم تكن كريستين غرانفيل مسجلة في أي من السجلات العادية التي تتضمن أصحاب السوابق وذلك على الرغم من كونها أجنبية وبولونية المولد، كما لم تتوفر أية وثائق عنها، وهذا ما كان يضايق القائمين على التحريات.

كما كانت الإضبارات لا تتضمن أيضاً أية معلومات لها قيمتها في إيضاح كل شيء عن ميلدوني. وكان نادي الإصلاح قد طلب منذ أشهر مضت من منظمة سكوتلنديارد تزويده ببعض المعلومات عن ميلدوني الذي كان مرشحاً للعمل في ذلك النادي. وقد تم تعيينه فيه بعد أن منحه رجال الشرطة ورقة لا حكم عليه، وبأنه لا مانع من استخدامه. وقام اثنان من الرجال بتحرياتهم في تفتيش غرفة ميلدوني في نادي الإصلاح الواقع في بول مول ولم يتمكنا من العثور على أية أدلة هامة، سوى بطاقة اشتراك في جمعية رجال البحر. ولم يكن لتلك البطاقة أية أهمية خاصة، لأن أغلب المستخدمين والعمال البريطانيين كانوا أعضاء طبيعيين في تلك الجمعية. وانه لمن المحتمل بأن يكون تعارف كريستين مع ذلك الشاب قد تم في أحد الموانئ، كما أنه من المحتمل أيضاً بأن يكون قد عمل وكريستين معاً على متن ذات الباخرة.

وفي تلك الفترة تقدم اثنان من الرجال لزيارة المفتش، وكان قد بعث بهذين الرجلين السير بيرس سيلليتو من مكتب مكافحة الجاسوسية م ـ 1 ـ 5. وقد أعلنا بأنهما غير مفوضين في الإدلاء بأية تصريحات، ولكنهما يرغبان في الحصول على تقرير يومي عن التحريات التي تتم في موضوع قضية غرانفيل، وأن تكون تلك التقارير بصورة واضحة وتفصيلية، لأن كريستين كانت تعمل في مكاتبهم في المباحث البريطانية.

وبينما كان رجال سكوتلنديارد يتابعون تحرياتهم مع شركات الملاحة البحرية التي كانت كريستين قد عملت فيها، ومع شركة اتحاد خط القلاع وأصحاب بواخر وينشستر كاستل، إذا بشاهد جديد يصل إلى لندن على متن طائرة عسكرية خاصة هبطت في مطار نوشولت.

وكان ذلك الشاهد الميجور اندرو كنيدي من مكاتب م ـ 1 ـ 5 الخاصة بمكافحة الجاسوسية، وقد اتجه فور وصوله إلى المشرحة، حيث وقف برهة صامتاً كالصنم أمام جثمان المرأة الجميلة للغاية، التي كان قد أعجب بها وأحبها، ثم استدار فجأة نصف دورة وقد ظهرت على وجهه إمارات الرهبة والعجز والحزن جميعها في وقت واحد، ووجه تحية عسكرية أخيرة إلى كريستين وذهب ليتجول وحيداً في قلب زحام جماهير لندن. ولم يكن قد أصبح مستعداً بعد للذهاب إلى مكاتب السكوتلانديارد.

وفي فترة أخرى، تقدم ضابط آخر من ضباط الاستخبارات إلى سكوتلنديارد للادلاء بشهادته التي لها أهميتها. إنه العقيد كامبرت الذي كان قد تعرف بكريستين منذ أشهر مضت في أحد الأندية الأنيقة جداً، وقضيا معاً لحظات حلوة. وقد رفض بدوره تصديق قصة الجريمة، وانها وقعت بدافع الحب، وكان مما قاله:

لقد كان لكريستين العديد من الخصوم والأعداء، وإنني لا أستطيع كشف النقاب عن الأسرار العسكرية المتعلقة بذلك، ولكن الكونتيسة كريستينا شيريك كانت السبب في اعتقال وإعدام عدد من عملاء العدو، كما أن العمل الذي كانت تزاوله في صفوف المقاومة مكنها من إخفاء وقتل عدد من الشخصيات النازية. وكان مما قاله كامبرت أيضاً بأن القليل من رجال المقاومة كان لهم مثل شجاعتها، وبفضل شجاعتها تلك تمكنت من إعطاء أفضل مردود. فمن كان خصومها وأعداؤها؟... هل هم النازيون سابقاً؟... ربما كان ذلك؟.. لقد هبطت بالمظلة أثناء الحرب خلف خطوط الأعداء، فهل نزلت بواسطة مظلتها حديثاً خلف الستار الحديدي؟...

وهل كانت رحلاتها البحرية مجرد تمويه؟... وهل كانت أكثر من عميلة تعمل ضد الشيوعية؟... وهل التحمت بالحركات النضالية التي تهدف إلى إعادة الحرية إلى بولونيا؟.. وهل أصبحت عضواً في عناصر المقاومة البولونية التي اتخذت هدفاً لها طرد القوات السوفياتية إلى خارج حدود البلاد؟...

إن العقيد لم يتفوه بأية كلمة تتعلق بالواجبات والمهمات التي كانت تعمل كريستين في تنفيذها حديثاً. كما أنه لا يعرف فيما إذا كانت قد تركت الخدمة في المنظمات السرية أو لا زالت باقية فيها، ولكنه كان على أتم استعداد للتحدث عن ماضيها، وحوادثها التي أصبح مكتب مكافحة الجاسوسية مستعداً للكشف عن أسرارها.

كان العقيد كامبرت قد تعرف على كريستين في فرنسا، وكان اسمها المستعار في تلك الفترة هو جاكلين آ. مانو وقد قام بوصف لقائه بها بشكل مثير في ليلة من ليالي عام 1941: كنت في مسطح فيدكور في جنوب شرق فرنسا، وكنت أعمل على قيادة مجموعة من عناصر المقاومة يصل تعدادها إلى الثلاثة آلاف، وهبطت علينا كريستين بواسطة مظلتها من السماء.. كانت فتاة حسنة وامرأة جميلة للغاية، وكان الهواء يعصف في تلك الليلة بسرعة تقارب المئة كيلومترات في الساعة، وقد تسبب ذلك في قذف كريستين مسافة بعيدة عن الهدف بحوالي الستة كيلومترات. وعندما لمست الأرض أخيراً، كانت الصدمة قوية بالنسبة لها وقد نتج عن ذلك تحطم أخمص بندقيتها.

كان الألمان يحيطون بنا، وكان المظليون يهبطون باستمرار خلف ظهورنا وعندما وقفت كريستين على قدميها ألقت قنبلة يدوية

تسببت في قتل ستة من النازيين الذين كانوا يحاولون الإمساك بها. وبفضل ما كانت تتمتع به كريستين من خيال خصب، وشجاعة نادرة، فقد شرعت فوراً في تنفيذ مهمتها، وبدأت القيام بأعمال النسف والتدمير. وكنا نعتبر تلك الأعمال التي تقوم بها نوعاً من المغامرات اليائسة التي كنا لا نثق جميعاً بإمكانية النجاح في تحقيقها، وقد وضع الألمان جائزة لمن يتمكن من قتلها، أو اعتقالها.

وعمل الألمان بعد ذلك على نشر ثلاث فرق للقيام بالهجوم علينا، وتمكنوا من اجتياح المنطقة التي كنا نقيم فيها كما عملوا على استخدام الطائرات الشراعية للهجوم على المناطق الصعبة، وكانت كريستين مسلحة بالمسدس الرشاش والقنابل اليدوية، وتمكنت من قتل عشرات الأعداء، كما استطاعت إبادة مجموعة من المقاتلين فور مغادرتهم لإحدى الطائرات الشراعية وكان عددهم حوالي الثمانية عشر رجلاً بواسطة القنابل اليدوية فقط. ولكن الألمان كانوا يتصرفون بعدد ضخم من المقاتلين، ولذا تلقينا بعد أربعة أيام تقريباً الأمر بالتفريق والانتشار جميعاً، واستفدت أنا وكريستين من الظلام فتمكنا من اجتياز خطوط الأعداء وقطعنا سيراً على أقدامنا مسافة مئة وعشرة كيلومترات حتى وصلنا إلى منزل أقمنا فيه، وبعد أن قضينا ليلة، ابتدأنا بنسف وتدمير المنشآت والمراكز الألمانية ونصب الكمائن لدوريات استطلاع العدو، وقد جازفت كريستين في كثير من المرات معرضة نفسها لخطر الأسر. وفي يوم وبينما كنا منبطحين على صدورنا في قلب غيضة كثيفة تشرف على الطريق، ظهرت أمامنا دورية المانية يوجهها الكلاب وهي تعمل في تفتيش قطاعنا. وأمكن لأحد الكلاب العثور علينا، وعندئذٍ بسطت كريستين يدها بحنان إلى الكلب الذي بدأ يهز بذيله، ثم أحاطت بذراعها رقبة الحيوان، وبدأ الألمان يرسلون صفراتهم،

ويفتشون في كل مكان ولكن الكلب بقي هادئاً إلى جوارها، وبقي وفياً لها طوال أشهر عديدة حتى انفجرت إحدى القنابل وأصابت منه مقتلاً.

وكان رجال سكوتلنديارد يستمعون بصمت إلى قصة مغامرات تلك الكونتيسة الصبية والشجاعة. وأخيراً روى لهم العقيد كيف تمكنت كريستين من إنقاذ حياته وحياة نقيب اسمه سورنس من منظمات الاستخبارات الأميركية، في ذات الوقت مع حياة زين فيلدامنيه وهو رائد انكليزي. وكان الحكم قد صدر على ثلاثتهم بالإعدام رمياً بالرصاص بعد أن تم اعتقالهم ومحاكمتهم على اعتبارهم من جواسيس الحلفاء، وكان تنفيذ حكم الإعدام سيتم في تمام الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالي، وكنا في انتظار تلك النهاية السعيدة عندما سمعت في حوالي منتصف الليل صوتاً يأتيني من خارج جدران السجن. إنه صوت كريستين وهي تغني أغنية فرانكي آند جوني، تلك الأغنية التي كنا غالباً ما ندمدمها معاً. وأجبتها بالغناء وترديد ذات الأغنية معها، وبذلك تمكنت كريستين من معرفة مكان سجني ـ ولقد كانت مفاجأة مثيرة فعلاً لم تخطر مطلقاً على مخيلتي ـ ذلك أن امرأة يفتش الألمان عن رأسها بأي ثمن، تقترب فتقف أمام سجن نازي لتغني أغنية أميركية عاطفية.

في الساعة السادسة والنصف، كنا في انتظار رؤية الباب وهو ينفتح، لكي يتم اقتيادنا إلى أعمدة الإعدام، ولكن لم يحدث أي شيء من ذلك. وفي الساعة الحادية عشرة، دخل علينا قائد المعسكر وهو شاهر مسدسه وبرفقته كريستين التي جاءت للبحث عنا.

لكي يقوم أي إنسان فيما أقدمت كريستين على عمله، فإنه

يحتاج إلى الكثير من الشجاعة والتفكير السديد، الذي لم أجده متوفراً في أي إنسان عرفته كما عرفته لدى هذه السيدة. فبينما كانت السلطات النازية تفتش عنها في كافة أنحاء أوروبا، تقدمت ببساطة إلى مكتب قائد المعسكر وصرحت أمامه بأنها تعمل في الجاسوسية الإنكليزية. وكان مما قالته له:

«إنني أطلب إطلاق سراح ثلاثة من الضباط فوراً وهم الذين ستنفذون فيهم حكم الإعدام في صباح الغد». وأنذرته في أنه إذا ما وقع حادث لها أو لأي واحد من الضباط الثلاثة، فسيتم إعدام كل ألماني في هذا المعسكر كمجرم من مجرمي الحرب. وتناقشت معه لمدة إحدى عشرة ساعة، ثم... ألقي بها لتنضم إلينا... حيث قضى الجميع زهاء الشهرين إلى أن عملت القوات الأميركية على إطلاق سراح الأسرى في ذلك المعسكر. وكان الفضل في نجاتهم لذلك الأسلوب الذي تمكنت بواسطته من إيهام قائد المعسكر بحيث أصبح وكأنه يشعر بأنفاس جنود قوات الحلفاء تحيط به، كما تمكنت من إقناعه بأنها ابنة أخ الماريشال مونتغمري، وكان ذلك القائد يرتجف من الغضب وهو يستمع إليها، ولكنه اقتنع بضرورة عدم إلحاق أي أذى بهم جميعاً.

كانت كريستين ذات تأثير قوي على الأشخاص، وإذا كان صحيحاً ما قيل في أن مقتل هذه المرأة التي يندر وجود مثلها في الطبيعة قد تم على أيدي رجل منحرف في صالة فندق من فنادق لندن، فإن ذلك يعتبر بحق قمة في السخرية.

ودخل المفتش جينيغ مع العقيد كامبرت في حديث طويل، وكانا على اتفاق تام بوجود سبب سياسي وراء حادثة القتل هذه، فمن هم

الأعداء؟... وأين هم؟... ومتى؟... وهل هم النازيون؟... وإذا كان النازيون فلماذا طال انتظارهم حتى عام 1952؟.. وهل أن خصومها في الوقت الحاضر وهم الشيوعيون البولونيون وراء هذا الحادث؟.. وطالما أن ميلدوني لا زال مصمماً على التزام الصمت، فليس هناك أي دليل على ذلك، ترى من دفعه لذلك؟.. وهل هم نفس المجموعة التي عملت على قتل جاكسون قاتل تروتسكي؟.. أم هم منظمة استخبارات موسكو والمسؤولين عن حوادث الاختطاف التي تقع في برلين؟..

ودخل شاهد جديد إلى مكتب المفتش جينيغ وكان ذلك الشاهد الميجور آندرو كنيدي، الرجل الذي عثر على اسمه في أوراق كريستين كأقرب قريب إليها. واعتذر عن تأخره وهو يشرح السبب في ذلك بأنه كان قد ذهب مباشرة إلى المشرحة. وكان بدوره أيضاً منزعجاً ومتضايقاً للغاية. لقد كانت الحادثة بالنسبة له مأساة شخصية. وقد احترم الجميع عواطفه لأنهم كانوا يعرفون تماماً أنها تمثل الشيء الكثير بالنسبة له. وكان يعرف القاتل وقد أدلى بتصريحه التالي:

ـ كنت قد قابلته في شهر شباط (فبراير) الماضي في لندن وكان يعمل رئيساً للمضيفين على ذات الباخرة ديناتور كاستل التي كانت تعمل كريستين على متنها، وانني أعرف أنه كان يظهر كل رقة وتهذيب تجاهها، كما كان يبذل قصارى جهده لكي لا تقوم بالأعمال المتعبة. ولقد سألتني كريستين ذات مساء فيما إذا كنت لا أمانع في مرافقة ذلك الشاب إلى السينما لأنه يشعر بالوحدة، ولكن له أصدقاء في لندن. وقبل ميلدوني دعوتي له، وكان يبدو مهذباً جداً، كما كانت تصرفاته ذات طابع خاص مما جعلني أفكر في أمره وأتصوره وكأنه كلب متشرد. ولقد بذلت كريستين الكثير لكي تشعره بالراحة والسعادة،

وكنت أحمل عنه انطباعاً في أنه من ذلك الطراز الذي لا يمكن أن يقوم بأي عمل ضار لدرجة أنه على غير استعداد لإلحاق الأذى ولو بذبابة. ثم تابع حديثه بقوله: كنت أنا وكريستين صديقين حميمين، ويعود تاريخ تلك الصداقة إلى زمن بعيد عندما هبطنا معاً بواسطة المظلات فوق أرض هنغاريا. ولو حدث بينهما أي شيء في السابق فإنني أعتقد بأن كريستين كانت لا بد أن تذكره لي.

وأظهر المفتش جينيغ بطاقة الطائرة التي كانت ستسافر عليها كريستين إلى بروكسل ليطلع عليها الميجور كنيدي. وقد اعترف الميجور بأنهما كانا قد اتفقا على اللقاء في هذه المدينة، ولكنه كان قد تلقى برقية في آخر لحظة تنص على تأجيل السفر لمدة يوم واحد.

ولم يكن كنيدي يدرك السبب لهذا التأجيل، فاتصل جينيغ هاتفياً بشركة الطيران، وأكد له أحد الموظفين بأن كريستين اتصلت به وطلبت تأجيل الرحلة لمدة أربع وعشرين ساعة وصرحت بالنص التالي: «إنني متعبة وأرغب في أن أستريح قليلاً». وعندئذٍ عقب الميجور على ذلك بقوله:

«إن كريستين لا يمكن أن تتعب أبداً. لقد كانت دائماً تفيض نشاطاً وقوة وكأنها كانت تقضي أيامها في إجازة قصيرة. إنني لا أستطيع تصديق هذه الرواية في أنها كانت تشعر بالتعب».

كان كنيدي قد تعرف على كريستين أثناء الحرب في عام 1939 ،عندما كانا يعملان معاً في منظمة خاصة في وزارة الحرب البريطانية، وعلى أثر ذلك تم إنزالهما معاً بواسطة المظلات فوق أرض هنغاريا. ولم يعمل كنيدي على طرح أية أسئلة تتعلق بماضيها، ولكنها أخبرته ذات يوم من تلقاء نفسها بأنها كانت تعمل في صيد الأسود في كينيا.

ولقد تم إرسالها إلى هنغاريا بناءً على خطة عملت على وضعها منظمة مكافحة الجاسوسية الانكلو ـ بولونية بمهمة أثناء التماس على طول الحدود البولونية، وقد تظاهرت كريستين بأنها تعمل كمراسلة لإحدى الصحف الألمانية، واستفادت من كل المناسبات الممكنة لتذهب إلى التزلج على الجليد على طول الحدود البولو ـ هنغارية.

وفي يوم من الأيام خرجت وحيدة لمقابلة الميجور كنيدي وكانت تهدف إلى اجتياز مسافة تقارب المئة كيلومتر تزلجاً على الجليد، ثم تتنكر بعد ذلك بشكل قروية، لتتابع طريقها إلى فرسوفيا. ثم انقطعت أخبارها فجأة ولمدة ثمانية عشر شهراً، فقدت أثناءها كل أمل في أن أجدها بعدئذٍ على قيد الحياة، كما كانت لندن تشعر ذات الشيء تجاهها، ثم دخلت هنغاريا الحرب، وبعد ذلك بقليل انطلقت الشائعات التي تناقلها اللاجئون الذين شردتهم الحرب عن أعمال امرأة عملت على إنشاء سراديب للمقاومة في كافة أنحاء بولونيا. وأنها تمكنت من تكوين مجموعات للقيام بأعمال التخريب والتفجير، وتنظيم أعمال الهجوم على السجون، وأخيراً، استلم الفرع م ـ 1 ـ 5 في لندن والمختص بأعمال مكافحة الجاسوسية رسالة من سفير بريطانيا العظمى في أنقرة تنص على أن كريستين قد أتمت مهمتها بنجاح، وأنها وصلت العاصمة التركية في انتظار تكليفها بأداء مهمة أخرى.

ثم جمعنا الطريق للعمل مرة أخرى في عام 1945 في إيطاليا. وفي ذات يوم، وبينما كانت كريستين تعمل خلف خطوط الأعداء، وقعت هي ذاتها مع رفيق لها من عناصر المقاومة الإيطالية في فخ نصبته لها مفرزة المانية، ورفعا أيديهما تنفيذاً للأوامر التي أعطيت إليهما، ولكنها كانت تحمل في كل يد من يديها قنبلة يدوية وصرخت

في وجوه الألمان «لا تتحركوا، وإلا فإنني سأعمل على تقطيعكم إلى قطع صغيرة». وذهل الألمان لهذه المفاجأة وهم ينظرون إلى أصابعها الممسكة بمسمار أمان القنبلة. وبدأت كريستين ورفيقها بالتراجع إلى أن تمكنا من الاختفاء والفرار بعيداً عن قبضة الألمان. وبقينا بعد أن انتهت الحرب على اتصال كل واحد منا بالآخر، وقد طلبت مني منذ عدد من السنين أن أكون أقرب أقربائها، لأنه لم يكن لها عائلة، كما لم يكن لها صديق خاص من بين العديدين من معارفها، وكانت تتجنب الحديث عن مغامراتها وعن الأوسمة الرفيعة التي تحملها، لأنها شخصية متواضعة فعلاً.

ألقت هذه الشهادة الضوء على كثير من الأشياء ولكنها لم تتضمن أي دليل أيضاً على وجود مؤامرة شيوعية يستند إليها حادث القتل. وكانت كريستين تعرف الحدود البولو ـ هنغارية أفضل من أي عنصر آخر من عناصر الاستخبارات كما كانت تختزن كمية من المعرفة ذات قيمة لا تقدر بثمن في مصلحة المقاومة التي كانت تعمل في الطرف الآخر من الستار الحديدي.

فهل كان رفاقها القدامى من الشيوعيين الذين يعملون في الوقت الحاضر في المنظمات السرية السوفياتية، قد أصدروا أوامرهم بقتلها.. أم هي ضحية رجل منحرف جنسياً ينقصه الاتزان؟.. ولم يكن ممكناً بالنسبة للمفتش جينيغ الذي عرف عنه نقاء الضمير، بأن يصدر حكماً قاطعاً في هذه القضية، ولذا طلب بإلحاح من مكاتب مكافحة الجاسوسية كشف بعض النقاب عن نشاط كريستين وأعمالها السرية في فترة ما بعد الحرب. فاضطر السير بيرسي سيللتو عندئذٍ أن يعترف له بأن القوات الخفية وعناصر المقاومة في بولونيا الحرة قد فقدت في مقتل شخص كريستين أفضل العناصر القيادية من الضباط،

كما علم بأنها كانت على تماس مع عناصر المقاومة في بلاد أخرى تابعة لها، وأنها كانت قد اخترقت الستار الحديدي ونفذت من خلفه إلى داخل البلاد. فهل يمكن على الرغم من عدم اتضاح الأدلة القاطعة في أن يكون الكريملين قد انتقم منها؟.

وبقي ميلدوني مصراً على موقفه، ولم ينطق بأشياء لها قيمتها. وكان مما قاله:

«طبقوا عليَّ العقوبة التي تنتظرني. إن الحب هو الذي دفعني إلى ذلك وليس هناك أي سبب آخر».

وعلم رجال سكوتلنديارد بأن جمعية رجال البحر التي كان ميلدوني ينتسب إليها قد أصبحت عرضة لتسرب شيوعي خفي، وقد أجاب القاتل بأنه لا يعرف شيئاً من ذلك القبيل، وأن هذه هي اعترافاته النهائية. وكان مما قاله:

«لماذا لا تعملون على شنقي سريعاً، طالما أنكم ستصلون في النهاية لهذه النتيجة؟ وماذا تنتظرون مني؟.».

وكان لاكتشاف العناصر الجديدة تأكيد جديد بأن قصة القتل بسبب الحب قصة غير حقيقية، ولكن لم يتمكن أحد من الحصول على البرهان الذي يؤكد بأن الشيوعيين أو قدامى النازيين قد أصدروا أوامرهم بالقضاء على كريستين. وقد كانت هذه الأخيرة مع ميلدوني في باخرة واحدة على خط أفريقيا الشرقية.

ثم بعد ذلك، أصبحت كريستين تتجنب العمل معه على متن ذات الباخرة، وقد عملت على إلغاء رحلة لها في آخر لحظة، وسافرت على متن باخرة أخرى اسمها نيو أوستراليا بينما استمر ميلدوني في رحلته على متن الباخرة ديناتور كاستل. وعندما تم

استجواب أعضاء زمرة الباخرة من قبل رجال سكوتلنديارد كانت أقوالهم على أنهم لم يلاحظوا مطلقاً بأن ميلدوني كان واقعاً في حب كريستين كما أنهم لم يلاحظوا بأنه كان يعاملها معاملة خاصة.

وخضع ميلدوني لاستجواب تبعه استجواب، ولكنه بقي مصراً على تصريحاته وأقواله في أنه كان يحب كريستين حباً دفيناً، وأخيراً قرر الإدلاء بتصريح جديد ظاهري وكان مما قاله:

«لم أكن أعرف بأن كريستين كانت كونتيسة، وقد قال لي الحرس ذلك عندما كانوا يتابعون قراءة الصحف. ويبدو أنها كانت على جانب كبير من الشجاعة أثناء الحرب وانها حصلت على عدد من الأوسمة الرفيعة.

ولكنني قتلت كريستين لأنها أخلفت معي ثلاثة مواعيد، كانت المرة الأولى عندما كنا نجتاز أوستراليا وكانت الثانية في ساوثهامبتون وكانت الثالثة في لندن في شهر نيسان (ابريل) الماضي، ومنذ ذلك الوقت وأنا مصمم على قتلها بعد أن دفعتني لهذه الفكرة ووضعتها في رأسي.

كنت أحبها، وقد قالت لي في البداية بأنها تحبني أيضاً، ولكنني أدركت بعد ذلك بأن حبها لي كان مجرد تسلية، وكنت أشعر بالغيرة من ذلك الرجل الذي دعاني إلى دار السينما، ولقد اخترت هذا العمل في نادي الإصلاح لكي أبقى مقيماً في لندن وأتمكن من مقابلتها في كل مرة تعود فيها من رحلاتها.

وفي مساء ذات يوم انتظرتها في الفندق، وعندما وصلت الفندق كانت برفقة رجل آخر، ولقد قالت لي بأنها غير مستعدة للتكلم معي، وأغلقت الباب في وجهي، وفي اليوم التالي اشتريت سكيناً ومطرقة،

وعندما حاولت الاتصال بها في الفندق علمت أنها خرجت على متن باخرة أخرى، ولم أعرف على أي مركب سافرت في رحلتها الجديدة.

بعد ظهر أحد الأيام تقابلت مع صديق لي عندما كنت خارجاً من سينما كارلتون وكان يعمل بحاراً في البحرية، عاد من رحلته في جنوب أفريقيا حديثاً. على متن الباخرة وينشستر كاستل وحدثني عن مضيفة جميلة جداً، وطلبت إليه أن يصفها لي، فعرفت عندئذٍ بأن تلك المواصفات تنطبق على كريستين وشعرت برعدة سرت في أوصالي.

وعدت إلى غرفتي في نادي الإصلاح لآخذ السكين والمطرقة، ولم أكن أعرف بعد فيما إذا كنت سأطعنها بخنجري، أو أقتلها، أو كان ذلك مجرد إرهاب لها، ولاحقتها من الفندق حتى المطعم اسبيرانزا وراقبتها وهي تأكل، ثم عدت إلى الفندق ومكثت في انتظارها، وعندما عادت لحقت بها ودخلت وراءها إلى البهو، وطلبت إليها أن تعيد إليّ تلك الرسائل التي كنت كتبتها لها، فأجابتني بأنها مزقتها ورمت بها، وعندئذٍ طعنتها بخنجري».

وكانت هذه الرواية مما يحتمل تصديقه، ولكن ميلدوني لم يتذكر مطلقاً اسم ذلك البحار الذي كان قد قابله عندما كان يغادر سينما كارلتون.

عمل رجال سكوتلنديارد على استجواب أفراد الباخرة والعاملين على متن وينشستر كاستل. ولكن أحداً منهم لم يكن قد جاء على ذكر كريستين كما أن أحداً منهم لم يقابل المدعو ميلدوني. ولقد غضب العقيد كامبرت من جديد، لأنه كان قد نسي إجراء التحقيق منذ البداية في واقعة لها أهميتها، فلقد كان هناك كاتب له شهرته يعمل في محطة

الإذاعة البريطانية B. B. C واسمه جيمس غليسون. وكان هذا الكاتب يعمل على إعداد كتاب عن أعمال المقاومة السرية وهيرويين الحرب كما كان قد اتصل بكريستين التي بعثت إليه ببعض المعلومات التالية:

«لقد ولدت منذ سبعة وثلاثين عاماً في بيوتركو في إقليم مقفر موحش، يفصل بولونيا عن روسيا. وكان اسمي وأنا طفلة صغيرة كريستين غيزيكا. وكانت عائلتي من العائلات العريقة جداً والصلبة الطباع، وكان الحرب والغزو والإغارة على القوزاق، وملاحقة قطاع الطرق ومطاردة الذئاب من عاداتها التقليدية.

وكنت بدوري طفلة متوحشة كأجدادي، ولذا كنت كثيراً ما أتضايق من المدرسة، وبما أنني كنت أعمل كل ما يروق لي فقد كان أبي مضطراً وباستمرار على الانتقال بي من مدرسة إلى مدرسة أخرى.

وفي ذات يوم، وأثناء إقامة الصلاة، وبعد أن شجعتني طفلة أخرى على تلك الفعلة، عملت على وضع النار في ثياب الكاهن، مما اضطره إلى تمزيقها ليتمكن من إطفاء النار بأقصى سرعة ممكنة. ثم ضحك ضحكة كبيرة، ولكن رئيسة الراهبات لم تستسغ تلك المداعبة، فاضطر والدي من جديد إلى أن يبحث لي عن مدرسة أخرى».

بعد أن تركت كريستين المدرسة، تم انتخابها كملكة لجمال بولونيا ثم تزوجت بعد ذلك بقليل من الكونت شبريك وهو صاحب صحيفة له شهرته، وعندما قام الألمان باجتياح بولونيا كان في ذلك الوقت في كينيا فعاد بسرعة واستقل الطائرة ليشترك في قتال الأعداء إلى أن قتل.

لم تكن مذكرات كريستين بعد ذلك تتضمن سوى نتائج تجاربها

الحربية، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في ذكر ما جرى لها بعد ذلك:

«ووجدت نفسي في فرنسا، متنكرة على شكل قروية، ترتدي أسمالاً بالية لا تزيد على كونها نسيجاً خشناً من قماش الأكياس المستخدمة لحفظ ونقل الأغذية. وقد تنقلت بواسطة السيارات التي كنت أستوقفها لتنقلني من مكان إلى مكان آخر، كما كنت أستخدم الطائرات وأنا أتظاهر في العمل كمضيفة على متنها. وبذلك أتقنت هذا العمل أثناء الحرب. وقد وصلت إلى لندن أخيراً في مساء يوم من أيام السبت، ولم يكن في جيبي أية نقود.

كانت السماء تمطر كالسيل. وبعد أن جلست لفترة من الوقت على عتبة باب من الأبواب في ريجنت ستريت أمكنني العثور على ملجأ أقضي فيه الليل، وكانت تتلخص مشكلتي في إيجاد عمل أعيش من دخله، فحاولت أن أعمل في بيع الثياب، ولكن الزبائن كانوا يتضايقون جداً من غلظتي، لأنني كنت أعطيهم الرأي بصراحة عندما كانوا يرغبون في شراء الثياب التي لا تلائمهم ولا تناسبهم.

وتنقلت بين عمل وعمل آخر.. وفي ذات يوم تقدمت إلى مدير يعمل على إدارة عدد من الفنادق. وسألني ذلك المدير فيما إذا كنت متزوجة، وعندما أجبته بالنفي قال لي بأن هذه الفنادق لا تستخدم سوى النساء المتزوجات. وسألته فيما إذا كان على الرجال الذين يعملون في فنادقه أن يكونوا متزوجين أيضاً، فقال لي بأن ذلك لا أهمية له بالنسبة للرجال، وعندئذٍ قلت له:

ـ «حسناً أرجو أن تعطيني لائحة بأسماء المستخدمين غير المتزوجين، وسأتزوج عما قريب واحداً منهم، وعندئذٍ طردني».

هذه الملاحظات عن سيرة كريستين لم يكن لها أية فائدة تتعلق

بالتحريات التي كان يوجهها المفتش جينيغ ولكن بعضاً من تلك المذكرات والتي لم يتم ذكرها هنا أوضحت نقطة مؤكدة وهي بأنها عملت بعد أن قضى زوجها نحبه على تقديم خدماتها طوعاً وبكامل إرادتها لصالح الحلفاء. وقد قال الميجور كنيدي مؤكداً ذلك بقوله:

ـ لقد فهمت منها ذات الشيء أثناء جلسة لتدريب عناصر المقاومة، عندما قابلتها للمرة الثالثة في أوروبا. وكان يخيل إلي دائماً بأن هناك الكثير من الرجال في حياة كريستين وكانت دائماً، وهي المرأة الأكثر شجاعة من أي عنصر من العناصر التي عملت في شبكات المقاومة، تخشى الرجال في أعماق نفسها، وكانت دائماً مثال المرأة التي تعطي أكثر مما تأخذ.

وبذلك كانت الكونيسة شبريك واحدة من هيرويين الحرب العالمية الثانية وربما ضحية من ضحايا الحرب الباردة، دفعت حياتها ثمناً للحرية. وكانت وهي تهب حياتها تعمل على تضحية من أكبر التضحيات، وبذلك احتلت مكانتها في التاريخ إلى جانب اديت كافيل تلك المواطنة التي عرفت مع جورج واشنطن وعملت معه، وايما ادموند الجاسوسة والممرضة التي أسرعت لنجدة لينكولن. وستذكر انكلترا ولزمن طويل تلك المرأة التي عملت على مساعدة ونستون تشرشل في أحلك الساعات وأصعب الأوقات التي مرت ببريطانيا العظمى.

وقد تم إعدام قاتلها شنقاً في لندن بتاريخ 28 أيلول (سبتمبر) من عام 1952.

كريستين كيلر(*)
(Christine Killer)
(-   )

هي إحدى جاسوسات جهاز الاستخبارات السوفياتية في بريطانيا، والتي تسبّبت بفضائح هائلة لمسؤولين بريطانيين من بينهم وزير الدولة في وزارة الحربية جون برفيومو.

كيف كان ذلك؟ وماذا عن هذه الفضيحة؟ وغيرها؟

فضيحة برفيومو قصة في ذاتها سردت عشرات المرات وكانت أحاديث الناس بمن فيها من نساء وجواسيس ومسؤولين، لكنها تستحق السرد بالمختصر لما فيها من تشابكات غريبة.

وزير الدولة في وزارة الحربية جون برفيومو المتزوج من الممثلة فاليري هوبسون اجتمع بالفتاة كريستين كيلر، التي تشتغل عاهرة تحت الطلب الهاتفي، ذات يوم من أيام الصيف وهي تستحم عارية في مسبح راق تابع لقصر كلايفدن الذي يملكه اللورد استور الذي كان من تقاليده «حسن الضيافة».

(*) المرجع: «الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت ص79 ـ 82.

وجينو ڤيفا ايتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». ص245 ـ 246.

برفيومو استحلى المنظر لأن كريستين «كان لها جمال جسدي أخاذ». بالنتيجة أتم برفيومو واجباته تجاه رجولته مع البنت بحسب التسهيلات التي قدمها صاحب القصر.

ذلك اليوم، وقد كان 8 تموز (يوليو) 1961، كان بين الضيوف مساعد الملحق البحري السوفياتي وعميل الاستخبارات العسكرية السوفياتية الكابتن يوجين إيفانوف. هذا بدوره استحلى البنت وشرب معها زجاجتين ويسكي وأنهى معاملته معها، كما قال التقرير الرسمي في ما بعد «ربما بنوع من أنواع العلاقة الجنسية».

كريستين نفسها، الأقل تحفظاً من التقرير الرسمي البريطاني، قالت في ما بعد أن إيفانوف كان يعجبها كثيراً «لأنه مثل الفحل».

كريستين كيلر والكابتن إيفانوف كانا في القصر بدعوة من شخص في الخمسين من عمره يدعى ستيفان وارد، وهو فنان وله بعض الأطباع الفريدة كاستعمال المرايا التي تمكنه مراقبة الأحداث من خلفها، وكمعاشرة الفتيات المراهقات.

وارد تعرف إلى إيفانوف في نادي غاريك (وهو أحد مراكز لقاءات رجال الاستخبارات البريطانية) وتصادق معه. وارد كان في الوقت ذاته صديقاً لبرفيومو.

على مسرح هذه العملية كانت فتاة لعوب أخرى تدعى ماندي رايس ديفيس وفتاتان أخريان من جزر الهند الغربية، إحداهما أطلقت الرصاص ذات يوم على كريستين فأخطأتها.

بعد انقضاء ثلاثة أيام على الحفلة الجنسية في قصر كلايفدن، كان جهاز الأمن قد علم بجميع التفاصيل من وارد نفسه، فلقد تبرع بالعمل على استخلاص المعلومات التي طلبها ايفانوف منه وهي

«معرفة موعد استعداد الأميركيين لتزويد الألمان الغربيين بالأسلحة الذرية».

ورجل جهاز الأمن الذي اجتمع بوارد، تعرف إلى كريستين في سبيل تقوية علاقته بها.

أواخر شهر تموز (يوليو) ذهب رئيس جهاز الأمن شخصياً لمقابلة برفيومو واقترح عليه تجنب التعامل مع وارد لأن هذا الأخير على علاقة وطيدة بعميل معروف للاستخبارات السوفياتية. وفي الوقت ذاته سأل رئيس جهاز الأمن برفيومو عن مدى قدرته في تحويل إيفانوف إلى عميل مزدوج.

برفيومو تقبل التحذير لكنه من جهة أخرى لم يتمكن من تحويل إيفانوف إلى عميل مزدوج. لذلك طلب إليه بأن يوقف هذا المسعى. لكن ما أزعج برفيومو في كل هذه الاتصالات هو اعتقاده بأن جهاز الأمن كان يحاول إبعاده عن كريستين.

والواقع، كما ثبت فيما بعد، أن جهاز الأمن لم يكن حتى ذلك الحين على علم بعمق العلاقة بين وزير الدولة والبنت، مع أن العلاقة كانت آنذاك تزداد تطرفاً وفي شقة وسرير وارد بالذات.

أوائل كانون الثاني (يناير) 1963 كانت كريستين تحاول أن تنقل قصتها إلى الصحف. فلما شعر برفيومو بعبء ذلك اتصل برئيس جهاز الأمن محاولاً حثه على مساعدته في منع ذلك عن طريق طلب رسمي من الدولة إلى الصحف بمنع نشر مذكرات البنت. هذه عادة بريطانية مطبقة بين الدولة والصحف عندما تشعر الحكومة بأن نشر الخبر يؤثر على سلامة الدولة وأمنها.

لكن المحاولة فشلت وتمكنت كريستين من نشر قصصها في

إحدى الصحف. والواقع أن الصحيفة شطبت مقاطع كثيرة من القصة في سبيل تليينها.

قبيل نشر المذكرات كان جهاز الأمن قد علم بشكل جازم بأن كريستين كانت عشيقة برفيومو وايفانوف في وقت واحد، وبأن مكتب رئيس الحكومة هارولد ماكميلان كان قد تلقى العلم والخبر مسبقاً من رئيس تحرير الصحيفة عن نشر المذكرات.

بعد انقضاء بضعة أيام على نشر القصة، علم جهاز الأمن من سكوتلنديارد أن كريستين اعترفت للشرطة بجميع مغامراتها وبأن وارد طلب إليها ذات مرة أن تستنطق برفيومو عن موعد إقدام الولايات المتحدة على تزويد ألمانيا الغربية بالأسلحة الذرية. ومع ذلك فضل جهاز الأمن البقاء بمنأى عن المسألة.

وازداد تعقد المسألة واضطر برفيومو إلى الوقوف في مجلس العموم في 22 آذار (مارس) 1963 محاولاً تبرئة نفسه، فيما انصرفت الشرطة إلى استجواب وارد بتهمة القوادة. لكن وارد عظم المسألة من زاوية أخرى وكتب رسالتين إلى رئيس الحكومة ورئيس المعارضة قال فيهما أن برفيومو كذب في مجلس العموم.

ولما كان الوضع قد أصبح أقوى مما يمكن احتماله، فقد اعترف برفيومو بأخطائه في 4 حزيران (يونيو) 1963 واستقال من منصبه الوزاري. بعد ذلك وقف رئيس الحكومة في مجلس العموم ليقول إن الحقيقة لم تصل إليه كاملة لأن «رئيس جهاز الأمن» لم يخبره بها.

آنذاك تساءلت الأندية العليمة عما إذا كانت الفضيحة هي فضيحة برفيومو وحده أم أنها يجب أن تشمل جهاز الأمن كذلك.

لقد ثبت في الواقع أن جهاز الأمن انتظر أربعة أشهر كاملة حتى يخبر رئيس الحكومة بالوقائع الصحيحة، وعلى الأقل تلك التي كان يعرفها منذ سنتين ومنذ أن تعرف رجل جهاز الأمن إلى كريستين كيلر.

والتساؤل الأبعد الذي اعتبرته الأندية العليمة محقاً أكثر، كان: ما دام برفيومو قد كذب أمام مجلس العموم، فلماذا لم يذهب رئيس جهاز الأمن إلى رئيس الحكومة ليقول له أن وزيره يكذب؟.

في هذه الأثناء كان ايفانوف قد غادر لندن نهائياً، خاصة بعدما نبهه وارد أوائل 1963 بأن فضيحة كبيرة قد بدأت تتفاعل.

أما رئيس جهاز الأمن، فما أن هدأت العاصفة حتى استقال من منصبه على مهل.

تقيداً بالعرف والتقليد، لم يكن بإمكان الرجل المستقيل من هكذا منصب أن يكتب مذكراته وينشرها، مع أنه كمدير كان يتقاضى سنوياً 5800 استرلينية فقط.

الراهن أن برفيومو كان ضحية ايفانوف بسبب الأسلحة الذرية وأن كريستين مثلت الدور الذي طلب منها وهو فضح أمره من باب الضغط عليه لإهلاكه سياسياً واجتماعياً ومعنوياً.

كريستين ويلي
(Christine Willy)
(-   )

هي إحدى نساء الولايات المتحدة الأميركية البارزات في ميدان المخابرات والتجسس. ونظراً لدورها وخبرتها في هذا الميدان، فقد أضحت في العام 1995 المديرة المساعدة في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية لشؤون الموارد البشرية.

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية...». مرجع سابق. ص222.

كلير
(Clair)
(-   )

هي إحدى عميلات المخابرات المصرية ورئيسها صلاح نصر. وهو الذي كلّفها بدسّ حبّات السمّ للملك فاروق مع صديقتين من صديقاتها المقرّبات للملك. كما اتهمت أيضاً بقتل فاروق الشوربجي ابن رجل الأعمال الكبير صبحي الشوربجي.

فمن هي كلير هذه؟ ولماذا قامت بما قامت به؟

يقول الكاتب ناصر الدين النشاشيبي، الذي كان يعرفها والتقاها سابقاً، أن اسمها موجود في دفاتر بوليس روما. واسم عشيقها السوري الشاب موجود في دفاتر الموتى. وقصة المرأة التي أحبت ثم قتلت ليس بالشيء الجديد منذ عهد آدم وحواء. ولكن الجديد في هذه القصة أن بطلتها التي قتلت أصلها من مصر، وضحيتها القتيل أصله من دمشق، ومسرح الهوى بدأ في «جنيف»، ومسرح الجناية انتهى في روما! وأن زوج المتهمة بالقتل كان شريكاً لها في العملية! وأن ثبات التهمة على الاثنين معاً قد أضاع التهمة عن الاثنين معاً..!

(*) **المرجع**: ناصر الدين النشاشيبي «نساء من الشرق الأوسط». دار الريس. بيروت 1988. ص83 ـ 98.

وبعد هذا، فإن الجديد في هذه القصة هو الجديد في بطلتها المصرية. في أسلوب حبها وفي أسلوب انتقامها! انها مُبتكِرة في تعاملها مع الحب وفي تعاملها مع القتل! وقد قيل ان المرأة الشرقية تفقد نفسها عندما تخرج من الشرق، لأنها تخوض في متاهات الغرب وتغرق في مستنقعاته وتضيع في شراكه، ولكن «كلير» ـ أعني هذه المرأة ـ أثبتت في حياة الغربة أنها في الغربة أقوى منها في وطنها، وأنها في حقدها أروع منها في حبها، وأنها أقدر من ملايين الأوروبيات من بنات جنسها على العشق والعيش، ثم على القتل ودخول السجن، وتحدي التحقيق، وعلى زعزعة القضاء، والفوز بالبراءة، ومن ثم العودة إلى أرض وطنها بعد أن عادت إلى أحضان زوجها وتخلصت من أحضان... عشيقها!

قصة مثيرة تبحث عن مخرج سينمائي...

ومن عادة باشاوات مصر وأغنيائها وحكّامها عندما يزورون سويسرا في الصيف الإقامة في فندق «دي بيرج» المطل على بحيرة جنيف. أما كبار رجال الأعمال المصريين من أمثال فرغلي باشا أو عبود باشا أو الشوربجي أو شاهين، فقد كانوا يختارون فندق «دي رون» المحاذي لفندق «دي بيرج» كمقر لهم حيث يتجمعون في ساعات بعد الظهر على التراس الخارجي المشرف على النهر ويقرأون صحيفة «الأهرام» ويتناقشون في أخبار مصر العامة، وبالأخص في أخبار الصناعة وقوانين التأميم والقرارات الاشتراكية الأخيرة.

وكان «صبحي الشوربجي»، المعروف بمصانعه الشهيرة في القاهرة والإسكندرية أحد هؤلاء الكبار الذين اختاروا فندق «دي رون» مقراً لهم في أشهر الصيف، والذين اعتادوا الجلوس في التراس

الخارجي للفندق للتمتع بمنظر النهر، واستعراض جموع النساء والرجال الذين يمرون من أمامهم عندما يأتي المساء ونجوم الليل تظهر..

وكنت أجلس مع صبحي الشوربجي في ذات مساء، على تراس فندق «دي رون» عندما رأيت سيارة «مرسيدس» بيضاء تقف عند المائدة التي كنا نجلس إليها وينزل منها شاب وسيم الشكل طويل القامة أبيض اللون أنيق الهندام، لم يلبث أن انحنى على يد صبحي الشوربجي ولثمها، ومد يده كي يصافحني بينما صوت الشوربجي يرنّ في أذني قائلاً لي:

ـ أقدم لك ولدي فاروق الشوربجي!

ثم أكمل على الفور وكأنه لا يريد أن ينسى:

ـ إنه خريج جامعة «اكسفورد» والمدير العام الجديد لشركات الشوربجي وأعماله في أوروبا.!

ـ تشرفنا.!

ولم يكد الشوربجي الشاب ينتهي من مصافحتي حتى أقبلت علينا سيدة جميلة تناهز العقد الثالث من عمرها، شعرها أشقر، وعيناها عسليتان وقامتها تميل قليلاً إلى السمنة وتتحرك بعصبية وتتكلم كانطلاق الرصاص، واحتضنت صبحي الشوربجي بحنان يلفت النظر، وقام الرجل بتقديمها إلى ولده «فاروق» وهو يقول لها بكل اعتزاز وتيه.. وسعادة:

ـ أقدم لك أحلى شباب العالم، ولدي فاروق «بيه» الشوربجي!

وانحنى «فاروق» على يد السيدة يُقبّلها على طريقة خريجي اكسفورد بينما والده يقدمها لي قائلاً:

ـ هذه مدام «كلير». . صديقتنا العزيزة من مصر. !

ولم يزد حرفاً واحداً! ولم يقل لنا عن اسم عائلتها أو زوجها! ولم يزوّدنا بأخبار عملها أو مقر إقامتها أو وضعها الاجتماعي مثلاً!

ـ تشرفنا مدام كلير. !

ولم تسمعني مدام كلير. ! كانت نظراتها مشدودة صوب الشاب فاروق الذي كان قد بدأ يُسلّط نظراته عليها! وعندما دعاها فاروق للجلوس معنا تعمدت أن تجلس أمامه وليس إلى جانبه؟ لقد حجبت عنه التمتع بمنظر النهر كي تعوّضه تمتعاً بمنظر وجهها الضاحك وصدرها العاجي وشعرها الأشقر الجميل! وبدأ فاروق يرمي شباكه من خلال النكتة المؤدبة أو الخبر الطريف أو التعليق الذكي أو ترديد عبارة «لاتينية. . .» تفصح عن العنوان المثقف لصاحبها الاكسفوردي الشاب. ولو عرف فاروق بأن «كلير» لم تقلّ رغبة منه في التعرف عليه، ولم تكن أقل اهتماماً به من اهتمامه بها، لوفّر على نفسه كل ذلك المجهود الصبياني الساذج في محاولة كسبها إلى جانبه أو ضمها إلى سلسلة معشوقاته! فقد كانت «كلير» تعرف كل شيء عن فاروق حتى قبل أن تراه. لقد سمعت عن أخباره من والده الذي كانت تفخر بصداقته وتعتز برعايته. وكان الأب معجباً بشخصية «كلير» إعجاباً هائلاً! وعندما يعجز الرجل عن كسب تقدير المرأة عن طريق رجولته، لا يملك إلا أن يلجأ إلى تكرار الحديث عن رجولة ابنه كتعويض له عن خسارته! وكان صبحي الشوربجي مغرماً بلعب دور «الدون جوان» العجوز مع اعترافه التام بفضائل «الدون جوان» وبعجز. . العجوز معاً!

وكانت كلير، بذكائها الحاد، تعرف كل هذه الحقائق حول نقاط الضعف في صبحي الشوربجي كرجل، وعن نقاط القوة في صبحي

الشوربجي، كأب! كان يحدثها عن ولده وكأنه يناجي معشوقته أو يغني لطفله أو يداعب أمله الكبير! كان يسرد لها مزايا ابنه، واحدة بعد واحدة، فكان يؤكد لها أن فاروق يتحدث الإنكليزية كالإنكليز، ويجيد التركية ـ ووالدته من استنبول ـ كالأتراك، وينظم الشعر باللغة الفرنسية، ويحفظ دواوين أكبر شعراء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام! وكان فاروق ـ أيضاً ـ يجيد العزف على أكثر من آلة موسيقية واحدة، ويمارس أكثر من لعبة رياضية معروفة، ويملك أكثر من سيارة سباق مشهورة! لقد أعطاه والده كل ما يتمناه الابن من ثروة ورعاية، وأعطته «اكسفورد» الثقافة والشهادة والعلم، ثم جاءت «كلير» لكي تقطف ثمار كل ذلك، وبكل دقة ودراسة وعناية وتخطيط ذكي!

وفي تلك الجلسة، وعلى تراس فندق «دي رون» بجنيف، وما زلت أذكرها حتى هذه الساعة، بدأت كلير حديثها معنا بالشكوى المرّة من حياة الغُربة والتشرد في خارج موطنها مصر! كان الحديث عن قلّة الخدم وكسلهم وأجورهم الباهظة! وباللغة العامية المصرية راحت «كلير» تردح لخدم أوروبا وجهلهم وتعاستهم مؤكدة أنها في مصر لم تدخل مطبخ بيتها مرة واحدة في حياتها. . «وأن الخدم عندنا كتير». . و«يوسف باشا» والد زوجي «جو» ترك لنا مجموعة الخدم النوبيين الذين كانوا يسهرون على خدمته في قصره بالزمالك وفي عزبته بالوجه البحري! الحياة في مصر سهلة ولذيذة. صحيح أننا نحن مش من العائلة المالكة، إنما إحنا ناس أغنياء. . ووالدتي من أصل بولوني. . ووالدي رجل غني. . وكذلك زوجي. لقد ورثنا عن «الباشا» والد زوجي الملايين من تجارة القطن، وكنا أكبر مصدري القطن المصري إلى الخارج! كده وإلا لأ؟! يا ترى نسيتوا أن الثورة صادرت ملايين

الجنيهات من ثروتنا في مصر؟ يا ترى الناس نسيت عائلة زوجي وخدماته للبلد؟؟!».

وأراد «صبحي الشوربجي» أن ينتقل بالحديث إلى ما هو أسهل وألذ بل وأكثر إنسجاماً مع الجلسة المُطلّة على النهر والبحيرة، فسأل «كلير» دون مقدمات:

ـ لماذا لا تذهبين مع فاروق في سيارته غداً إلى باريس؟

وقبل أن تفتح كلير فمها لكي تسأل فاروق عن مشروع سفره إلى باريس، قال لها فاروق ضاحكاً:

ـ أنا في العادة أستيقظ مبكراً، وأبدأ رحلاتي مع شروق الشمس.. فما رأيك؟

وأجابت «كلير»، وهي ترسم دهشة مُصطنعة فوق وجهها:

ـ ليس عندي أي حل للسفر معك قبل شروق الشمس سوى أن أدعو نفسي الآن للعشاء معك، ثم الذهاب معك إلى شقتك ثم النهوض المبكر معك قبل أن تشرق الشمس ثم السفر فوراً إلى باريس معاً!

وقهقه صبحي الشوربجي لهذه الجرأة المحببة من «كلير» وقال لها وهو يغمز لابنه فاروق:

أنا أدعوكما لتناول طعام العشاء معي، وأترك لكما بعد ذلك تدبير أموركما بدوني..

ونهض الجميع لتناول العشاء في مطعم فندق «دي رون». وبعد العشاء ركب فاروق سيارته المرسيدس البيضاء ولثم يد والده مودعاً، وخرج وأخذ معه.. «كلير»!

ليس مهماً أين قضت «كلير» ليلتها الأولى بعد أن تعرفت على فاروق. إنما المهم أنها استيقظت مبكرة مع شروق الشمس، وركبت السيارة المرسيدس البيضاء مبكرة مع صديقها فاروق، وسافرت إلى باريس مبكرة وفي سيارة واحدة مع الشاب الذي تعرفت إليه منذ أقل من 24 ساعة!

وهنا بدأت المأساة! فقد كان فاروق شاباً مغروراً ومستهتراً إلى حد كبير. وكان في حبه لـ «كلير» لا يطفئ شهوة الجنس فحسب وإنما يشبع من خلالها ألف جوع وألف ضياع! لقد أحب فيها وطنه الذي هجره، ورأى فيها الرفيق الذي يبحث عنه، وأحس فيها شريكة وأنيسة وتوأم عذاب وتشرد واغتراب. وكان فاروق معجباً جداً بالملك «فاروق» ويشعر باحترام كبير نحوه ويحس بأنه مدين لهذا الملك بما أنعم به على والده «صبحي» من رتب وألقاب! وكذلك كانت «كلير».. تفخر بصداقتها مع الملك فاروق وتتغنى بما أنعم به هذا الملك على والد زوجها من أوسمة وألقاب لم يكن لقب «الباشاوية» أكبرها شأناً ولا أقلها قدراً! وجاء هذا الحب المشترك من الطرفين للملك المصري، الذي لم يتمتع بوفرة المحبين في حياته، عاملاً جديداً يزيد في توثيق عرى المحبة والصداقة بينهما. وكانت «كلير» تحب في الرجل صورة الطفل وصورة المرأة معاً! وكان فاروق يحب ذاته ويتغنى بماله ويُعجب ـ قبل الآخرين ـ بوسامته وجماله! كان ثرثاراً كثير الكلام ويختلق القصص السخيفة التي لا يصدقها، ولا ينطق بها إلا الأطفال الصغار! كان يطلبني بالتلفون في منتصف الليل على شقتي بمدينة «جنيف»، والدنيا برد وثلوج وعواصف لكي يروي على مسمعي قصصاً اخترعها عن غزواته الغرامية الساذجة، وكيف أن ابنة عم امبراطورة إيران تُهدد والدها بالانتحار إذا لم يسمح لها

بالزواج من فاروق. ! وكيف أن الأميرة المصرية «فايزة خوار»، شقيقة ملك مصر السابق، تطارده في شوارع «جنيف» لكي يدعوها للعشاء وللسهرة، أو إلى ما هو بعد العشاء، وبعد السهرة! كان سخيّاً في أكاذيبه التي يريد بها أن يؤكد للسامعين قدرته العجيبة على غزو قلوب النساء وإرغامهن على الاستسلام له! وكانت بعض النساء الشرقيات اللواتي يعرفن والد «فاروق»، يتصلن بذلك الوالد بقصد الشكوى من لسان «فاروق» ـ ابنه ـ وكيف أنه يسمح لنفسه أحياناً بالخوض في مواضيع حساسة تمس أعراض الناس وشرفهم وتؤثر على حياتهم الزوجية، وأن مثل هذه الأحاديث الخطيرة والمتفجرة لن تخدم أحداً سوى الشيطان، وأن من يرددها أو يخترعها قد يلقى ذات يوم من ينبري له وينتقم منه ويضع حداً لقصصه وروایاته!

وكان فاروق شغوفاً بالطعن في كرامة السيدات المتزوجات بصورة مكشوفة لا يقدم عليها إلا الأطفال! وكانت «كلير» تحب في فاروق هذه الطفولة الشيطانية، أو هذه السذاجة الوقحة وتحفظ قصصه وترددها عن لسانه أمام الناس! كانت أشبه بالأم العبيطة التي تصفق لطفلها كلما كسر كأساً أو حطم طبقاً أو قلب وعاءً أو أرسل كلمة بذيئة فيها من السباب أكثر ما فيها من الكلام الحلو الذكي!

وهكذا استمر فاروق يروي القصص الخيالية عن السيدة حرم المليونير السوري التي هربت من زوجها الشاب إكراماً له، وعن شقيقة ذلك الزعيم اللبناني التي لم تزل تطارده في شوارع «ميلانو»، وعن «صوفيا لورين» أو «لولو بريجيدا» أو «أوليفيا دي هافيلاند» اللواتي يتحمّلن من العذاب في سبيل فاروق ما لا يقدر عليه بشر! لقد استمر يتصرف كالأطفال الكبار، ويخترع الروايات كعجائز الحي، ويسيء إلى الحرمات والبيوتات كأسوأ ما تكون الإساءة! ورغم كل ولعه في

اقتراف مثل هذه المبالغة، وجنوحه نحو الكذب والتلفيق عن غزواته العاطفية، فقد بقي فاروق في صميم نفسه يشكو من الوحدة العاطفية أو الفراغ العاطفي الذي لم يكن له من سبب سوى أنه عاش بلا أخ ولا أخت ولا قريب يشاركه هموم الحياة، ويفهمه أو يفهم منه!
وعندما أنهى فاروق دراسته في جامعة اكسفورد ظن أنه سيعود بعدها إلى مصر لكي يتولى إدارة شركات والده القائمة هناك بانتظاره. ولكن قرارات التأميم الاشتراكية في أيام «عبد الناصر» جرّدت الشوربجي من حق التصرف في أملاكه، وفرضت على ابنه فاروق الشاب أن يبقى بعيداً عن وطنه وعن شركات أهله! لقد عاش فاروق وهو يشعر بالكثير من الظلم والغربة والجفاء العاطفي والعزلة النفسية والنفي عن أهله وبلده وممتلكاته! ولم تستطع والدته التركية الأصل أن تعوّضه شيئاً عن هذا الظمأ العاطفي! وكذلك لم يقدر أبوه ـ بثقافته المحدودة وكبر سنه ـ أن يتجاوب معه في طلباته وفي أحلامه. وكان لفاروق أخ من أبيه ومن أمّ عربية أصلها من مدينة «غزة» بفلسطين، ولكن فاروق لم يشعر بأية عاطفة نحو ذلك «الأخ»، ولم يبادله ذرة من الحب! وهكذا، وعندما التقى فاروق الشاب، بالمرأة المصرية «كلير».. لم يجد فيها مجرد امرأة جميلة، ومثقفة، وشهوانية، وذكية، وطموحة، فحسب، أي لم يعثر على عنصر «المرأة» فيها فقط، وإنما وجد فيها بعض وطنه، وبعض ألمه، وبعض أملاكه التي صادرتها الثورة، وبعض الأهل الذين لم يرهم في بلده، وبعض الذكريات والقصص، مع الكراهية المشتركة لثورة «23 يوليو» (حزيران)، والحب المشترك لنادي الجزيرة، والشوق المشترك لشواطئ الإسكندرية في الصيف، والبحث المشترك عن ساندويش الفول والطعمية وطبق الملوخية والبامية في ليالي آب

(أغسطس) على شاطئ النيل والولاء المشترك لملكٍ سابق سقط عن العرش!

وبكل حماسة الشباب واندفاعه وجنونه، مضى العاشقان الشابان يكتبان فصول قصتهما في الحب بين العواصم الأوروبية المختلفة!

وقال فاروق لأصدقائه بلهجة الشاب العاشق والمنتصر: «انني أحب سيدة جميلة ومن أرقى عائلات مصر، ومتزوجة! ولكنني سأطلقها من زوجها لكي أتزوجها...».

وقالت «كلير» لأصدقائها بلهجة الشابة العاشقة والفخورة: «إنني أحب شاباً مصرياً ووسيماً وثرياً ومتخرجاً من جامعة اكسفورد، وسأطلق زوجي لكي أتزوجه!».

وانتشرت أسرار هذا الحب بين جميع أقارب الشوربجي وجميع أقارب «كلير» في داخل مصر، وفي خارجها!

وعرف بالقصة والد فاروق واخوته وأمه التركية. كما عرف بالقصة زوج «كلير» وعائلته وأصدقاؤه.

وعندما حاول الأب أن ينصح ولده الوحيد والمدلل أن لا يمضي طويلاً في حبه لسيدة متزوجة وشرقية وصديقة شخصية له ولعائلته، أجابه فاروق وبكل هدوء وغرور وثقة:

ـ اسمع يا والدي، إنني أتحدث عن الزواج ولكني لا أفكر فيه. وأتغنى بالحب ولكني لا أعرف ما هو الحب! إن «كلير» مجرد امرأة من العشرات اللواتي عرفتهن في حياتي. وكل واحدة منهن كانت تطمع في أن تتزوج من إبنك فاروق! إنك أنت يا والدي صاحب الفضل في هذه الشهرة التي أتمتع بها عند النساء! لقد منحتني وسامة

في الصورة، ومالاً في المصارف وثقافة جامعية، واسماً كبيراً فماذا تنتظر مني أن أفعل؟؟ هل أدخل مدرسة الجامع الأزهر وأصبح شيخاً يلبس العمامة ويحاضر في الناس حول محاسن الأخلاق!؟؟ إن المرأة تعجز أن تحدق في هذا الوجه الحسن الذي أعطيته أنت لولدك! إن «كلير» لا تقدر أن تنظرني بعينيها أو أن تقرب وجهها من وجهي! إنها تقول لي أنني أملك في نظراتي قوة سحرية لا تقدر أية امرأة أن تصمد أمامها أو أن تقاومها! وليس معقولاً يا والدي أن أترك كل هذه النعمة إلى امرأة واحدة فقط لكي تتلاعب بها باسم الزوجية! إنني لن أتزوج مطلقاً! لا من «كلير» ولا من غيرها! ولكن ميزة «كلير» على سواها أنها تحبني، وأنها ستطلق زوجها لكي تصبح حرة في حبها لي، وانها من عائلة غنية وعريقة في بلادنا، وأنها مثلي تحب أكلة الملوخية والبامية والفول والطعمية، وانها غيورة جداً عليّ وتراعي صحتي في الأكل والسهر! فلماذا أتركها؟! إنها أحسن من أية «خادمة» في العالم للسهر على راحتي! وهي خادمة بالمجان. خادمة في الليل وفي النهار وخادمة في داخل البيت وفي خارجه! وخادمة متمرّنة ومثقفة وتجيد الإنكليزية والفرنسية والبولونية والعربية! وخادمة تضرب على الآلة الكاتبة، وترد على التلفون، وتشرف على نظافة البيت، وتحاسب الموظفين في المكتب، وترقص معي في مقاهي حي «فيّا فينتيو» بروما حتى الفجر.!

وعندما سمع الوالد اسم حي «فيّا فينتيو» سأل ولده:

ـ هل أصبحت تتردد على روما كثيراً في المدة الأخيرة؟

وأجاب فاروق على الفور:

ـ بل لقد قررت أن أجعل مقر إقامتي في روما! لقد استأجرت

مكتباً في حي «فيّا فينتيو» مقابل فندق «اكسيلسيور»، وسأبدأ في شراء المباني وتأجيرها في أرقى أحياء العاصمة! وسأطلب من أعمامي الدخول معي في الشركات التي أسستها لهذا الغرض. !

وسأله والده: ولماذا روما؟. لماذا اخترت روما بالذات؟

وأجاب فاروق: إن «كلير» هي التي طلبت مني أن أختار روما للسكن وللعمل! إنها تحب روما. . . ولا أدري لماذا؟!

وعاد الأب يسأل ابنه فاروق:

ـ هل ستبقى «كلير» معك في روما.؟ أعني هل ستعيشان معاً؟

وأجاب فاروق:

ـ إنها معي إلى أن تزهق مني، وترحل عني!

ثم أضاف ضاحكاً:

ـ كما فعلت معي الكثيرات من قبلها. !

وهكذا استسلم «صبحي الشوربجي» لإرادة ابنه فاروق، وتركه يمارس العمل ويمارس الحب، بعيداً عنه في العاصمة الإيطالية.

وبقي هو في «جنيف». .

وكنت ألتقي به، فلا أسمع منه شيئاً إلا وفاروق المدلل طرف فيه! إن مرت بنا سيارة، فإن «فاروق» يملك واحدة مثلها! وإن مرت بنا امرأة، فإن فاروق يحب واحدة تشبهها!! كان فاروق هو هاجسه وسلوته وبقية عمره.

ومضت شهور. !

وذات ليلة، وكنت أغالب القلق في شقتي بجنيف عندما دق

جرس التلفون وسمعت صوت «زهير القباني» وكان يعمل يومذاك مديراً لمكتب الجامعة العربية في «جنيف»، وهو ـ كالشوربجي ـ سوري الأصل، يقول لي بصوت مذعور أن «الولد» فاروق قد وجدوه مقتولاً في شقته بحي «فيّا فينتيو» بروما، وأن القاتل قد تعمد أن يحرق وجه القتيل بماء النار وحامض الكبريت قبل أن يضربه بالرصاص. !

وأضاف «زهير القباني» يقول لي وكأنه يدلني على هوية القاتل:

ـ إن القاتل الذي يصرّ على تشويه وجه ضحيته بحامض الكبريت قبل أن يجهز عليه بالرصاص، لا بد وأن يكون... إمرأة!

ثم أنهى محادثته لي قائلاً:

ـ تعال معي نذهب في صباح الغد لكي نستقبل والده «صبحي» القادم غداً بالطائرة من مصر، وننقل إليه الخبر تدريجياً! إنه لا يعلم حتى هذه الساعة أكثر من أن ابنه قد أصيب في حادث سيارة وأن إصابته خطرة!

وفي صباح اليوم التالي كنت مع مجموعة من أصدقاء الشوربجي وأقاربه وأصهاره، نستقبل الوالد الحزين في مطار جنيف!

وكان «زهير القباني» قد طلب من أحد الأطباء السويسريين أن يأتي إلى المطار ومعه حقيبته الطبية وبداخلها حُقناً مسكنة وأقراص مقوية للقلب تمهيداً لإبلاغ «صبحي الشوربجي» بنبأ مقتل ابنه الشاب!

وفي الدقيقة التي هبط فيها الشوربجي من طائرته، تقدم منه الطبيب السويسري وأبلغه أن في البلد إصابات بمرض مُعدٍ ولا بد من إعطائه الحقنة المناسبة في مثل هذه الحالات!

واستسلم الشوربجي لطلب الطبيب، بينما تقدم منه صديقه السفير

السعودي في جنيف وأبلغه بحادث مقتل ولده فاروق في مكتبه بروما!

وأغمي على صبحي الشوربجي.! ولم يكد يصحو من إغمائه حتى غرق في دموعه كالأطفال المفجوعين بالمصاب الأليم!

وطلب أن يحجزوا له مقعداً على أول طائرة تحمله إلى روما.

وبعد 3 ساعات كان صبحي الشوربجي يبكي بحرقة فوق جثة ولده المشوهة بحامض الكبريت، والملقاة وسط مكتبه الواسع الأنيق في العاصمة الإيطالية!

وعندما سأله المحقق الإيطالي عن الأشخاص الذين يظن بأنهم قتلوا ولده، أجاب صبحي الشوربجي على الفور:

- اسألوا كلير! إما أنها تعرف، وإما أنها هي القاتلة!

وعندما ألقى البوليس الإيطالي القبض على «كلير..» وبدأ يحقق معها في قضية اغتيال «فاروق الشوربجي»، قالت كلير إن زوجها هو الذي قتل فاروق من أجل الدفاع عن شرفه.. وعرضه!

وألقي القبض على الزوج الذي اعترف بكل شيء! قال للبوليس إنه ذهب مع زوجته - أو مطلقته - «كلير» إلى مكتب فاروق، ودار بينهم نقاش حاد، انتهى بأن قامت «كلير» بقتل «فاروق» بمسدس كانت تحمله في حقيبة يدها.!

وأنكرت «كلير» أنها هي التي قتلت فاروق مؤكدة للمُحقق بأن دورها في الجناية لم يتعد كونها قذفت بمحلول حامض الكبريت في وجه فاروق وحرقته لكي تشوهه وتقضي على الوسامة التي كان فاروق الشاب يعتز بها أمام النساء انتقاماً منه لأنه وعدها بالزواج ثم تخلى عنها ولم يتزوجها، رغم أنه حطّم حياتها وأرغمها على أن تطلق

زوجها الذي كانت تحبه وتعيش معه، وراح يتسلى بفضحها أمام الناس!

وأصرّ الزوج على أقواله مؤكداً أن كلير هي القاتلة. بينما تمسكت «كلير» بأقوالها واتهمت الزوج بقتل فاروق أمامها!

ودخل الزوجان السجن رهن المحاكمة..

وتبرعت معظم صحف العالم بنشر تفاصيل القضية على صفحاتها الأولى، وخاصة الصحف الإيطالية التي وجدت في هذا الحادث المدوّي صورة طبيعية للنفس البشرية العادية التي إذا شعرت بخيانة الحبيب عمدت إلى الانتقام منه بالقتل أو بالتشويه أو بالإِثنين معاً!

وقالت إحدى مجلات روما في تعليقها الافتتاحي على حادث مقتل فاروق: «هكذا يفعل الإِيطاليون وهكذا تنتقم الإِيطاليات!».

وبين ليلة وضحاها أصبح اسم «كلير».. واسم زوجها.. واسم «فاروق الشوربجي» على كل لسان! حتى عازف الكمان العجوز الذي كان يقف في كل ليلة بجوار المدخل الرئيسي لكافيه «دي باري» وزملاؤه الذين اعتادوا العزف على آلاتهم الموسيقية في مقاهي ميدان «بابريني» بروما، قد وضعوا الأغاني الخاصة عن مقتل «فاروق» بيد عشيقته «كلير»، وبعضهم راح يبكي عليه، وبعضهم راح يبكي عليها، وبعضهم راح يواسي الزوج المخدوع الذي فقد زوجته لفاروق، ثم فقد حريته ودخل السجن بتهمة القتل!

وجاء دور المحاكمة...

واختارت عائلة «كلير» كبار المحامين الإيطاليين للدفاع عنها

وعن زوجها! بينما استبدّ عُنف المأساة بوالد فاروق فاستسلم للصمت ولليأس ولم يبذل جهداً كافياً ولا مالاً كافياً للثأر من الذين قتلوا ولده الشاب!

وصمدت كلير للتحقيق وللضغط وللأسئلة المحرجة في داخل المحكمة بكل قوة واتزان! لقد ضربت بقوة أعصابها وتماسكها أروع الأمثلة في العناد ومتانة الشخصية! لقد بقيت ترفع رأسها عالياً، وتتمسك بهندامها ورشاقتها، وترقب حركاتها، وتحافظ على هدوئها، وتناقش مستجوبيها حتى صدر الحكم الأول بإدانتها وإدانة زوجها معها!

ثم كان القرار بالاستئناف من طرف المتهمين.

ثم صدر قرار الاستئناف بالحكم مدى الحياة.

ثم جاء استئناف شكلي جديد يتعلق بشهود جدد وأدلّة جديدة!

ثم صدر الحكم بخروجها من السجن تحت الكفالة!

واستمرت القضية شهوراً طويلة.. ومملة.. ومكررة!

وعندما بحثوا عن «كلير» في الأراضي الإيطالية، وجدوا أنها استطاعت التسلل خارج البلاد والعودة إلى مصر.!

وقال لي «صبحي الشوربجي» ونحن نجلس من جديد على مائدة صغيرة في تراس فندق «دي رون» المطل على نهر جنيف وبحيرتها الجميلة... تلك المائدة التي جلسنا عليها كلنا ذات يوم، مع ابنه القتيل الشاب فاروق، وحبيبته القاتلة كلير..، قال لي صبحي الشوربجي وكأن شبح ابنه يقف أمامه في تلك اللحظة لكي يحاسبه أو يناقشه:

ـ لقد عادت كلير إلى مصر وهي تعلم أن الانتربول أو ـ البوليس الدولي ـ يطاردها! ولكن الرشوة لعبت دورها. وفي روما كل شيء له ثمنه. حتى القضاة يمكن شراؤهم! وأنا ـ والكلام للشوربجي ـ أعتقد تماماً بأن «كلير» وأهلها دفعوا رشوة هائلة للقضاة الإيطاليين الذين نظروا في تلك القضية، مما جعل هؤلاء القضاة يلجأون إلى المواد القانونية العجيبة التي تقدر أن تُخفّف العقوبة عن القاتلين بحجة أن كلاً منهما يرمي بالتهمة على الآخر! ليس في روما قضاء ولا قضاة! هناك شيء اسمه فلوس! وأنا بعد أن مات ولدي لم يعد يهمني أن أنفق فلوسي بداعي الانتقام فقط! لقد عرف العالم كله أن «كلير» وزوجها هما اللذان قتلا ولدي. والحكم عليهما بالموت أو بالسجن المؤبد لا يهمني لأنه لن يعيد لي ولدي! لقد أصابتني حالة من القرف، أو اليأس، أو الحقد الذي شلّ إرادتي وحطم أعصابي فلم أعد أكترث لشيء ولا حتى لنفسي...

واستمر صبحي الشوربجي يقول لي:

ـ شيء واحد فقط بقي يقضّ مضجعي ويسلب النوم من عيني ويزيد من حرقتي على ولدي الذي قتلوه! هذا الشيء هو أنني المسؤول عن تعريف فاروق بالمرأة.. كلير! أنا الذي كنت أعرفها! وأنا الذي كنت صديقها! وأنا الذي دعوتُ فاروق أن يصحبها معه إلى باريس! أنا وحدي المسؤول عن ضياع ولدي.!

ورأيت صبحي الشوربجي يرفع بيده المنديل الحرير المعلق في الجيب العلوي من سترته الأنيقة، ويمسح به دموعه..

ومضت شهور طويلة ولم يعد أحد يسمع عن كلير أو عن زوجها شيئاً..

لقد اختفت كلير من الصحف، ومن الأخبار، ومن المحاكمات، كما اختفت من أوروبا كلها!

وعندما التقيت بصبحي الشوربجي في أحد شوارع «جنيف» بعد حادث ولده بفترة طويلة وسألته عن كلير وزوجها وماذا جرى في المحاكمة، أجابني قائلاً:

ـ إن صلاح نصر، رئيس المخابرات المصرية، استدعى إلى مكتبه امرأة مصرية الأصل، بولونية الدم، كانت بحكم إقامتها في أوروبا صديقة حميمة لمجموعة من صديقات الملك السابق فاروق ومن بينهن الغانية «ايرما كالبيتش مينوتولو» وهي فتاة بارعة الجمال وابنة سائق تاكسي في «نابولي»، وكذلك الغانية الإيطالية الصغيرة «آنا ماريا جاتي» العاملة في إحدى محلات التزيين للسيدات، وقال صلاح نصر للمرأة البولونية الدم، المصرية الجنسية، أن الحكم قد صدر بسجنها مدى الحياة من أعلى محاكم إيطاليا، وأن بوليس الانتربول يلاحقها لكي يُسلّمها للسلطات الإيطالية، ولكنه ـ أي صلاح نصر ـ على استعداد لحمايتها وضمان حريتها واستقرارها في وطنها مصر بشرط أن تتعهد بدورها أن تنفذ ما سيطلبه منها..! وعندما فتحت المرأة البولونية الدم المصرية الجنسية فمها دهشة لكي تسأل رئيس المخابرات عن الشيء الذي سيطلب منها تنفيذه، قال لها صلاح نصر وهو ينهض من وراء مكتبه الضخم ويجلس بجانبها على الكرسي المواجه:

ـ سأعطيك بنفسي ثلاث حبات دواء أبيض.. وعليك تسليمها لإحدى صديقاتك المقربات من الملك فاروق في روما لكي تضعها له في كأس عصير البرتقال أو عصير الليمون الذي اعتاد أن يتناوله مع

العشاء! إن هذه الحبات لا تترك أي أثر. إنها تقتل تدريجياً ولا يستطيع الطب أن يكتشف مفعولها..

قال لي «صبحي الشوربجي»، مستطرداً لكي يكمل بقية قصته لي:

ـ وبالطبع قامت تلك المرأة البولونية الدم، المصرية الجنسية، والمتهمة في جناية قتل، والمطاردة من البوليس الدولي ـ الانتربول ـ بتنفيذ كل ما طلبه منها «صلاح نصر»، رئيس مخابرات مصر.. مقابل أن يضمن لها حريتها وأمنها وسلامتها!..

وسكت صبحي الشوربجي!.

وظننت أن أثر الفجيعة التي أصابته في فقدان ولده قد مسّت قواه العقلية فأفقدته توازنه! وإلا، فما هذه الرواية الخيالية عن المرأة التي قتلت فاروق الشاب، ثم قتلت بعده فاروق الملك.؟ هذا خيال ساذج! هذا كلام فارغ! هذا مجرد حقد دفين على المرأة التي أحبها ولدك ثم قتلته! لقد مات الملك فاروق في مطعم «دي فرانس» بروما، بعد أن التهم دستة من المحار وجراد البحر وشرائح من لحم الحمل وبطاطس محمرة وخضار فرنسية وفطائر وكميات من الكعك المحشو بالمربى والعسل... وليس لهذه المرأة ولا لأحد غيرها أية علاقة بموته. لقد مات الملك فاروق بالتخمة. وهذه هي الحقيقة!

ولكن «صبحي الشوربجي» راح يضحك من سذاجتي وغبائي وقلة معلوماتي قائلاً لي:

ـ إن التقارير التي أرسلها لي كبار المحامين في قضية ولدي، تثبت للدنيا كل كلمة قلتها لك! وكذلك ما سبق لي وسمعته من صديقي «فلان» سفير مصر السابق في روما! وكذلك ما رواه لي

المحامي «شميت»، وزير الداخلية السابق في حكومة جنيف! وكذلك ما قيل لي على لسان كبار رجال البوليس الداخلي في العاصمة الإيطالية..!!

ثم سألني صبحي الشوربجي بغضب:

ـ أين هي هذه المرأة «كلير» حالياً؟

قلت: في القاهرة.!

فسألني: وأين هو الملك فاروق؟!

قلت: في قبره، داخل جامع «الرفاعي» بالقاهرة.. أيضاً!

قال: ومن كان مع الملك فاروق ساعة موته؟

قلت: مجموعة من الغواني بينهن «أنا ماريا» ورفيقتها إيرما كابيتش مينوتولو.!

قال: ومن هي أقرب الصديقات إلى كل واحدة من هاتين الغانيتين؟

قلت: لا أدري!

قال: أنا وحدي أدري! إنها المرأة إياها.. «كلير» التي قتلت ولدي فاروق.!

ثم عاد يسألني:

ـ ولماذا لم تحضر «كلير» إلى روما، ولماذا لم تدخل السجن، ولماذا لم يُنفذ قرار القضاء ضدها، ولماذا اختفت مع زوجها؟

قلت: أنا لا أفهم في أمور الجنايات..

قال: المسألة بسيطة! هناك أياد مسؤولة وعالية تبرعت بحماية

«كلير» مقابل خدمات محددة قامت «هي» بتأديتها على الوجه المطلوب!

ـ مثلاً؟

وصرخ صبحي الشوربجي وهو ينهض من كرسيه لكي ينصرف دون أن يودعني:

ـ أنا أشكوها لله! أنا أرفع يدي وبصري وقلبي صوب السماء وأسأل ربي أن ينتقم لي منها ومن زوجها! أنا لست حزيناً من أجل نفسي وإنما من أجله هو! لقد سقط هو في ريعان الشباب، أما أنا فقد بلغتُ آخر العمر وسألتقي به قريباً.!

بعد مرور أقل من شهرين اثنين على هذا الحديث، مات صبحي الشوربجي، ولحق بابنه الشاب... فاروق!

كلير فيليبس(*)
(Clair Phillips)
(-   )

جاسوسة أميركية ضد اليابانيين، تجسست عليهم انتقاماً. وقد كتبت كلير عن نفسها تقول ما يلي:

اسمي كلير فيليبس، وقد حدثت الوقائع التي سأرويها الآن في عام 1943، عندما تقهقرت القوات الأميركية في باتان، وتبعتها أنا وابنتي ديانا لكي أكون على مقربة من زوجي جون فيليبس في قيادة فرقة المشاة الحادية والثلاثين...

كان اليابانيون يطاردوننا، وكنا نلوذ منهم بالتلال، كأننا وحوش مطاردة، وزاد في قلقي أن ديانا أصيبت بالملاريا، وكانت تنقصنا العناية الطبية اللازمة، فدفعني اليأس إلى الفرار بها إلى مانيلا حيث تكرم أحد الأميركيين من أقارب والد ابنتي بإيوائنا...

ولن أنسى ما عشت تلك الأشهر العصيبة التي عشناها في التلال، والتي عانينا فيها، من عنف اليابانيين وقسوتهم ما ملأ نفسي حقداً عليهم وبغضاً لهم... ولعل هذا الحقد هو الذي دفعني ذات

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ص72 ـ 77.

يوم، من حيث لا أدري، إلى التفكير في محاولة التجسس عليهم واستقصاء أخبارهم، لمصلحة بني قومي الأميركيين.

وكانت خطتي التي عقدت عليها العزم هي أن أنشئ نادياً ليلياً على الشاطئ، فأتجسس منه أخبار أعدائي اليابانيين، وأراقب حركات سفنهم وقواتهم، وأظفر بالأنباء من الضباط اليابانيين الذين يترددون على حانتي ولم أعبأ بما قيل لي من بطشهم، ومن احتمال القاء القبض علي وإعدامي...

وأطلقت على نفسي اسماً جديداً: مدام دوت، ودعوت «حانتي نادي تسوباكي» وأدركت أن كل ذلك لم يثر شبهة اليابانيين فازددت احتقاراً لحذقهم ونظامهم، ويبدو أن مما أعانني على النجاح أني سمراء اللون سوداء الشعر، ولعلهم حسبوني إيطالية المولد أو زوجة لأحد أهالي الفيليبين...

وكان دوري في الحانة دور المغنية والمديرة.

كنت أغني للسكارى من الضباط وكبار الموظفين اليابانيين بصوتي الأجش الذي لم يخلق لغناء أغاني الحب الحزينة... وهي أغان كنت أحفظها من أيام المدرسة الثانوية، وكانت تعجب كبار ضباط الجيش والأسطول إلى حد بعيد...

وكان معنى اسم النادي تسوباكي: زهرة الكاميليا، وهي كلمة ترضي اليابانيين، لأنها تعني عندهم كل ما هو رقيق وناعم وعسير المنال... وكانت مساعدتي الفيليبينية فلي كوكوارا ـ ممثلة النادي الأولى ـ تعرف غرضي وطالما أعانتني عليه، وأنقذت حياتي بشهامتها وشجاعتها...

ولو رأتني أمي يومئذٍ لدقت كفاً بكف ولم تصدق عينيها...

كنت أقف عند المدخل وكلما أقبل ضابط ياباني أحنيت له رأسي وأنا أقول كومبارا وهي تحية مهذبة كقولك طاب ليلك، ثم أقوده إلى مائدته، فيختار هو من تقوم على خدمته، من فتيات الحانة، فتصب له البيرة في كأسه، وتشعل سيجارته، وتبتسم له، وتعابثه... ثم يبدأ العرض، فترقص مساعدتي، أو تغني ثم أغني بدوري، وقد أرقص رقصة المشاعل عارية أو شبه عارية، ثم يأتي دور فتيان وفتيات من أهل الفيليبين يرقصون الرقص الوطني الذي يحبه اليابانيون...

وكانت الخمر تدفع ببعض زبائننا العظام إلى تصرفات همجية، وتغريهم بي أو ببعض بنات الخدمة، فإذا قلنا لهم أن هذا ليس مكان ما يبتغون، لطمونا على وجوهنا، وقد يحطمون الزجاجات والكؤوس على الأرض ويخرجون دون أن يدفعوا شيئاً، بل حدث في إحدى المرات أن ضابطاً فظاً كسر زجاجة البيرة على رأس إحدى فتياتي.

ولما أيقنت بثقة زواري اليابانيين بي بدأت عملي، فاتصلت بقائد حرب العصابات الأميركي في منطقة باتان، وبدأت أزوده بالأنباء والمعلومات التي أقف عليها أولاً بأول، وكانت الأنباء التي أنقلها يكنّى عنها بأسماء الأطعمة، فإذا كانت هامة كتب إلي:

«الفول شهي الطعم» وإذا كانت تافهة كتب إلي: «فسد الكرنب عندما وصل».

وأعتقد أنني أسديت إلى قواتنا أيادي جمة في كل ما يتعلق بتحركات السفن اليابانية والجهات التي تقصدها قواتهم في الداخل.

وفي إحدى الليالي أقبل على حانتي ضابط بحري، وكان ربّاناً لإحدى سفن الصليب الأحمر، وشرب حتى ثمل، وقال لي في ما قال إنه وصل لساعته من جزيرة بوجنفيل مع جيوش كثيرة..

سألته: هل جرحت؟

فأجاب وهو يضحك أنه لم يجرح لأنه اجتاز البحر في بواخر الصليب الأحمر، وأضاف قائلاً: إن الأميركيين الأغبياء لا بد أن يسمحوا بالمرور لسفينة الصليب الأحمر دون أن تمس بسوء...

وفي تلك الليلة أرسلت إلى قواتنا في التلال أن اليابانيين استعملوا سفن المستشفيات لنقل الجيوش...

وفي ليلة أخرى جلست مع أحد الضباط اليابانيين ـ وكان قائداً لحاملة طائرات، وكنت أعرف أنه يحب الاستماع إلى غناء مساعدتي ـ ثم أقبلت «فلي» بعد أن انتهت من غنائها وحيته تحية لطيفة ثم سألته في عدم اكتراث عن موعد رحيله...

قال: الليلة

قالت: وما عنوانك الجديد؟

فسألها والخمر ترنحه:

ـ ولماذا تسألين؟

قالت وهي تطوق عنقه بذراعيها:

ـ لأكتب إليك.

قال: إني ذاهب إلى سنغافورة، ثم إلى رابول..

وبادرت أنا بإرسال هذه الأنباء...

وبعد ذلك بأشهر حضر بعض الضباط الذين كانوا معه، فقال لمساعدتي محزوناً:

ـ لقد هلك حبيبك وكثير ممن كان في السفينة.

فذرفت عليهم قليلاً من دموع التماسيح.

ومن الحوادث التي لا أنساها أن قائد أحد أساطيل الغواصات الصغيرة أعجب بي ذات ليلة فطلب إلي أن أرقص. ولكني قلت له: «عد غداً في الليل». وضعت مروحتين من الخيزران المشقوق والورق الرقيق، وخاطت مساعدتي ثوباً للرقص لونه كلون اللحم، وأعددت ضوءاً أحمر، خابياً، ليضيء ساحة الرقص، وجاء القائد وفي صحبته أربعون ضابطاً، وأقسم أن أبصارهم كادت تغشى من شدة تحديقهم ليتبينوا أكنت عارية أم لا.. وكان قد قال لي: «أرقصي الليلة رقصاً مثيراً، فنحن سنبحر فجر الغد إلى جزائر سليمان» ونجحت في الرقص المثير نجاحاً عظيماً، وأرسلت الخبر الهام إلى التلال.

وبعد ذلك بأشهر جاء أحد الضباط وأخبرني أنه أحد الباقين على قيد الحياة من الأسطول الصغير. ومرة أخرى ذرفنا بعض دموع التماسيح.

ومرت الأيام، ثم أقبل صباح يوم من أيام أيار (مايو) 1944 فدخل غرفتي أربعة من رجال الشرطة اليابانيين، فوثبت واقفة، وسدد اثنان منهم مسدسيهما إلى ضلوعي.

وصاح أحدهما بي في حقد:

ـ قفي أيتها الجاسوسية.

وارتعدت، ودق قلبي، وجف حلقي حتى لم أستطع أن أبتلع لعابي، فقد كنت أعلم علم اليقين أن الجواسيس يرمون بالنار أو تقطع رؤوسهم.

وعصب الرجال الأربعة عيني وساقوني إلى السجن، وبدأ

التحقيق في الصباح وأنا لا أزال معصوبة العينين.

وفهمت أن أحد خطاباتي وقع في أيديهم، والحق أن الصوت الذي كان يستجوبني جعل يقرأ خطاباً كنت قد أرسلته لرجالنا، ثم قال لي إن الفتاة الفيليبينية التي كانت تحمله قد قبض عليها.

وكان التحقيق فظيعاً، فقد ضربت وركلت، وتداولتني الأيدي والأقدام، ثم مددت وربطت يداي ورجلاي ربطاً محكماً، وفجأة وضع في فمي وأنفي خرطوم من خراطيم الحدائق. وهذا هو «التعذيب بالماء» وهو كالغرق، إلا أنه أشد هولاً.. ثم بدأوا يضغطون سجائر مشتعلة في فخذي وفقدت وعيي مرات عديدة. فلما عدت إلى رشدي كفوا عن التحقيق، وتركوني وحدي بعد أن رفعوا العصابة عن عيني.

وقضيت في غرفة السجن ثلاثة أشهر، وكانوا يعطونني كل يوم ثلاثة أقداح من الماء وقدحاً واحداً من الأرز، فدب في جسمي الضعف لقلة الغذاء وذاب لحمي، وعلتني القذارة والقمل وأحدثت السجائر المشعلة في جسمي قروحاً وندوباً سأحملها معي إلى قبري.

وبعد انقضاء تلك الفترة دعيت ذات فجر إلى المحاكمة النهائية، ووجه المحقق الياباني وهو يستقبلني ألواناً من السباب. ثم بدأت عملية التعذيب مجدداً. وضعوا طرف مسمار تحت ظفر اصبعي، وأخذوا يدقونه بمطرقة. أي ألم فادح. لقد أطار عقلي شعاعاً. فلما أفقت رأيت ضابطاً يابانياً يلمع سيفه، وأمرني أن أركع وشعرت بحد السيف على عنقي.

قال: صلي لربك، فقد دنت ساعتك! وسقطت على وجهي مغشياً علي.

وصدر الحكم في اليوم التالي بإطلاق الرصاص علي بتهمة الجاسوسية.

وكنت أقول لنفسي كل ليلة وأنا مستلقية على أرض الحجرة في السجن: الليلة يعدمونني.

ثم أقبل يوم 10 شباط (فبراير) من عام 1945 حين دخل علينا الفتيان الأميركيون بخوذاتهم وخرجت حافية القدمين، في ثيابي الرثة الممزقة.. ولكني كنت سعيدة بحريتي.. وبأملي أن أعود فأرى ابنتي ووطني...

كوندوليزا رايس(*)
(Kondoliza Rice)
(- 1954)

هي أول امرأة سوداء تتولى منصب مستشار الأمن القومي في الولايات المتحدة (وأجهزة الاستخبارات هي إحدى الأجهزة التابعة له). كما كانت أول امرأة سوداء أيضاً تتولى وزارة الخارجية الأميركية بعد الجنرال كولن باول في ولاية جورج دبليو بوش الثانية، وهو الذي عيّنها في ولايته الأولى مستشارة الرئيس الأميركي جورج بوش (الإبن) لشؤون الأمن القومي. ولها إخلاص مزدوج لعائلة بوش وشركات النفط وصناعة الأسلحة. تعد رايس التي تلقب بـ (كوندي) أول امرأة يتم تعيينها في منصب مستشار مجلس الأمن القومي. وتقول رايس عن نفسها إنها «جمهورية حتى العظم، ومحافظة جداً في السياسة الخارجية». وكانت خلال عشرين سنة خلت من المؤيدين المحسوبين

(*) **المرجع**: د. صالح زهر الدين «موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم». الجزء الثاني. المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2003. ص214 ـ 218. ود. صالح زهر الدين «موسوعة الإمبراطورية الأميركية»(قاموس الشخصيات الأميركية) الجزء الثاني. المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2004. ص271 ـ 274. وجريدة «الحياة» في 17/ 11/ 2004. وجريدة «المستقبل» في 17/ 11/ 2004.

على عائلة بوش وسياستها الخارجية في الطاقة، والتسلح والصناعات المالية، وفي رفض العزلة الأميركية.

نشأت رايس وترعرعت في بيرمينغهام التي كان سكانها في أغلبيتهم الساحقة من السود ـ آلاباما ـ وتعلمت عزف البيانو ورقص الباليه والتزلج والفرنسية. وأظهرت موهبة خاصة في المدرسة حتى أنها انتسبت إلى جامعة (دينفر) وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وتخرجت وهي في التاسعة عشرة بنجاح ونالت بكالوريوس في العلوم السياسية. وفي دينفر كان جوزيف كوربيل والد مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية في عهد كلينتون هو الذي يقوم بتدريسها أبحاثاً عن الاتحاد السوفياتي فأصبحت مختصة بالدراسات عن الروس. وبعد ذلك نالت درجة الماجستير من جامعة نوتردام، ثم الدكتوراه من قسم الدراسات السياسية في دينفر. وفي عام 1981 ذهبت إلى ستانفورد لدراسة مسائل الحد من الأسلحة، وأصبحت بعد ذلك مدرسة بدرجة بروفسور في العلوم السياسية وعضواً في «مؤسسة هوفر القومية».

وفي عام 1986 استدعيت للعمل مع رونالد ريغان وإدارته في التخطيط الاستراتيجي النووي في قيادة هيئة الأركان المشتركة وفي «مجلس العلاقات الخارجية». وفي عام 1989 عادت إلى واشنطن لتتولى منصب المدير للشؤون السوفياتية والأوروبية الشرقية في «مجلس الأمن القومي». كما عملت في الفترة نفسها مساعداً للرئيس بوش في شؤون الأمن القومي. وحين قدم الرئيس بوش الأب في أحد اجتماعاته مع الرئيس غورباتشوف مساعدته كوندوليزا قال له: «ها هي كوندوليزا التي أطلعتني على كل ما أعرفه عن الاتحاد السوفياتي». وبعد سقوط بوش الأب في الانتخابات أمام كلينتون تسلمت رايس منصباً كبيراً في مؤسسة هوفر وكانت أصغر عضو في هيئة جامعة

ستانفورد وفي الوقت نفسه كانت عضواً في مجلس إدارة مؤسسة «شيفرون» و«هويلت» و«تشارلس شقاب» وفي شركة «مورغان إنترناشيونال الاستشارية» حيث توفرت لها الفرصة بالالتقاء بمعظم المدراء التنفيذيين الكبار والمتنفذين في تلك المؤسسات والشركات الكبيرة، . وفي عام 1995 أكرمتها مؤسسة «شيفرون» التي تختص بصناعة النفط ونقله حين أطلقت على أكبر ناقلة نفط في شركتها اسم «كوندوليزا رايس» وحصلت على مكافأة مالية من الشركة على شكل أسهم فيها بقيمة 250 ألف دولار.

ولقد اختيرت رايس في منصب المستشار للأمن القومي بسبب ولائها لعائلة بوش وإخلاصها وكذلك بسبب موهبتها وخبرتها اللامعة في هذا الميدان.

وخلال علاقاتها مع عائلة بوش أقامت صلة خاصة مع السيدة باربرا زوجة بوش الأب. وفي غمرة النشاط في حملة جورج دبليو بوش الانتخابية كانت هي التي أطلقت عبارة التملق التي يشك بانطباقها على بوش الإبن: «إنه مفكر هائل»!؟ وكانت قد عبرت عن جزء من أفكارها حين ذكرت لفصليّة «فورين أفيرز» أن الإدارة الأميركية عليها أن تضع أميركا أولاً في كل شيء وقالت: «ينبغي على السياسة الخارجية الأميركية في إدارتها الجمهورية أن تعيد تركيز الولايات المتحدة على مصالحها القومية، ورغم أنه ليس من الخطأ القيام بشيء ما يفيد كل البشرية، إلا أن هذا يجب أن يكون في سياق الترتيب الثاني».

ويفضل المحيطون بالسيدة رايس وأتباعها إعادة تنظيم وترتيب الاقتصاد العولمي. ولقد ساهمت هي بنفسها ضمن فريق بتقديم دراسة

واسعة حول «النظام العالمي الجديد» في عهد الرئيس بوش الأب. وفي 17/ 11/ 2000 ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» أن كوندوليزا قالت: «يمكن أن تدعو الضرورة إلى وضع قوات بوليس دولية لتنفيذ مهام حفظ السلام لأنها الآن من مسؤولية الجنود». وهذه الفكرة أو الملاحظة لا يستسيغها أبداً جناح أقصى اليمين في الحزب الجمهوري، ولذلك اعتبر هذا الجناح رايس عميلة أو وكيلة للأمم المتحدة. ويعتبرها اليسار من عهد الحرب الباردة ورجالها الذين لم يدركوا ما حدث من تغييرات في عهد كلينتون السابق.

ومن نقاط ضعفها أنها لا تعرف إلا القليل جداً عن العالم النامي ودول العالم الثالث رغم أنها تحمل كراهية شديدة تجاه كوبا. وتعتبر رايس من الصقور الداعين إلى تنفيذ برنامج الدفاع الصاروخي المضاد للصواريخ رغم أنها شجعت بوش الابن أثناء حملته الانتخابية على الإعلان برغبته بتقليص أحادي الجانب في أسلحة الولايات المتحدة النووية.

وتشير التقديرات إلى عدم احتمال أن تقوم رايس بأية تغييرات كبيرة في سياسة الأمن القومي كما ظهرت خلال هذه الفترة من إدارة بوش. ومع ذلك لا أحد يمكنه توقع كيفية مواجهتها وردها تجاه أي أزمة مقبلة. عينت وزيرة للخارجية خلفاً لكولن باول في ذكرى ميلادها الخمسين يوم الأحد الواقع في 14 تشرين الثاني (نوفمبر) 2004، كهدية «بوشية» بهذه المناسبة.

إضافة لذلك، فقد كتبت جريدة «الحياة» عن رايس تقول:

إنها «أميرة حرب» من زمن الفصل العنصري... والدها قس ووالدتها مدرسة بيانو.

وهي أول سوداء تتولى الخارجية، عرفت بنبوغها وتأثرت بفكر والد أولبرايت.

وأضافت «الحياة» تقول:

يشكل ترشيح مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس لتولي الحقيبة الأهم في الإدارة الأميركية، تحدياً كبيراً، ليس فقط لكونها أول امرأة سوداء تشغل منصب الخارجية، وإنما باعتبارها مقربة من الرئيس الجمهوري، ما يجعل وفاءها يطرح تساؤلاً عن مدى قدرتها على إدارة أكثر حقائب البيت الأبيض تعقيداً.

وينظر كثير من الخبراء إلى «أميرة الحرب» كما يطلق عليها، بصفتها إحدى أضعف من شغل منصب مستشار الأمن القومي في التاريخ الحديث من حيث القدرة على التعامل مع الصراعات، كما عليها العمل بجد لكسب الموظفين في الوزارة والذين يكنون الولاء لوزير الخارجية المستقيل كولن باول، بعدما أبدوا مخاوفهم من تحجيم بوش صلاحيات الوزير المستقيل، على حد تعبير مصدر فضل عدم ذكر اسمه.

وبالنظر في سجل كوندوليزا رايس، تتجلى جدلية هذه الشابة المصنفة ضمن نوابغ جامعة دنفر... أول امرأة تشغل منصب مستشارة الأمن القومي وحليفة دائمة لبوش، والأكثر تحصيلاً علمياً في فريقه، ترافق رايس الرئيس وزوجته لورا في عطل نهاية الأسبوع في كامب ديفيد وتعتبر أهم حافظي أسراره.

ولدت عام 1954 وترعرعت في عصر طغى عليه الفصل العنصري في برمينغهام في ألاباما، وإن أكدت أكثر من مرة عدم تأثرها بأجواء الحقبة تلك.

كانت كوندوليزا أو «كوندي» كما يلقبونها تحبباً، في الثامنة من العمر عندما وقفت في كنيسة والدها وشعرت بالأرض تهتز، نتيجة انفجار قنبلة في الكنيسة المعمدانية المجاورة، متسببة في مقتل أربع فتيات سوداوات، إحداهن كانت رفيقتها في الدراسة.

وهي تصر على أن هذا الحادث لم ينم في نفسها الأحقاد، باعتبار أن الفرص كانت دائماً متاحة أمامها و«جعلني والداي أقتنع بأنه قد لا يمكنك تناول الهامبرغر في وولوورث (أيام التمييز)، لكن في إمكانك أن تكون رئيساً للولايات المتحدة»، كما علماها أن العلم هو أفضل سلاح ضد التمييز العنصري، بحسب تأكيدها في مقابلة مع مجلة «نيوزويك».

درّبت نفسها منذ الصغر على الإرادة القوية القائمة على احترام الذات، ودخلت جامعة دنفر وهي في الخامسة عشرة من العمر وتخرجت بتفوق وهي في التاسعة عشرة بشهادة في العلوم السياسية.

عازفة بيانو محترفة، أرادت التخصص عازفة كلاسيكية، حتى التقت في دنفر بجوزف كوربل، لاجئ تشيخي ووالد مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية السابقة، نمّى لديها حب العلاقات الدولية وتاريخ الاتحاد السوفياتي، لتحول اختصاصها إلى العلوم السياسية.

حصلت على شهادتي الماجستير والدكتوراه قبل أن تكمل السادسة والعشرين من العمر، وصارت عضواً في مركز جامعة ستانفورد للأمن الدولي ومراقبة التسلح. شغلت منصب مستشارة الشؤون السوفياتية في المجلس الوطني في إدارة بوش الأب، لتعود من بعدها عام 1991 إلى ستانفورد.

ومع وصول جورج بوش الابن إلى الحكم، برز تأثير رايس في

رسم السياسة الخارجية، وقادت المفاوضات مع روسيا في شأن الدفاع الصاروخي، ويقال إنها كانت محرّك الإدارة في الأشهر الأولى من عهد بوش.

تجلّت قدراتها بعد اعتداءات 11 أيلول (سبتمبر) 2001. ووقفت إلى جانب الرئيس في الأوقات الحرجة وما تلاها من حرب على أفغانستان ثم العراق، حتى أصبحت واحدة من راسمي «عقيدة بوش» المثيرة للجدل في التحرك استباقياً ضد الدول التي يعتقد أنها تشكل خطراً على الولايات المتحدة، لا سيما أنها صرحت قبل شن الحرب على العراق بأنه «لطالما احتفظت الولايات المتحدة بحق محاولة تقليص أو درء الخطر قبل وقوعه».

ويبدو أن أراءها المثيرة للجدل هذه، لم تؤثر في شعبيتها في داخل البيت الأبيض أو خارجه، بل أنبأت على العكس باستحقاقها منصب وزيرة الخارجية، وأصبحت بذلك صاحبة المركز الثالث في التسلسل بعد الرئيس ونائبه.

أما جريدة «المستقبل»، فقد تطرقت إلى هذا الموضوع بقولها:

إن كوندوليزا رايس صديقة مقربة من الرئيس وقد نادت بوش «زوجي» وهو يناديها «كوندي» تحبباً وأضافت «المستقبل» تقول إن:

كوندوليزا رايس كلمتها مسموعة جداً لدى الرئيس الأميركي جورج بوش وصديقة شخصية له ترافقه أينما كان تقريباً. وعلاقاتهما قريبة جداً إلى درجة أنها نادت الرئيس «زوجي» خلال عشاء في واشنطن على ما نقل عنها مدعوون قبل أن تتراجع عن كلامها. ويناديها بوش باسم «كوندي» تحبباً ولا يتردد في وضع يده حول كتفيها علناً.

ولدت رايس في 14 تشرين الثاني (نوفمبر) 1954 في عائلة من البرجوازية السوداء المتوسطة في جنوب البلاد. وهي امرأة أنيقة وتهتم بمظهرها. احتفلت الأحد بعيد ميلادها الخمسين. وقد شغلت منصب مستشارة الرئيس للأمن القومي خلال ولاية جورج بوش الأولى منذ توليه السلطة في كانون الثاني (يناير) 2001.

ومن خلال هذا المنصب ترأست مجلس الأمن القومي الذي أنشئ عام 1947 لتنسيق العلاقات بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع وأجهزة الاستخبارات. وكانت أول امرأة تشغل هذا المنصب وواجهت ظروفاً استثنائية مع اعتداءات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) والحرب على العراق.

ورايس محافظة باردة ونشيطة لكنها واجهت بعض الصعوبات في التوفيق بين عمالقة إدارة بوش الأولى مثل وزير الخارجية المستقيل كولن باول ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد.

وتعتبر استقالة ريتشارد كلارك العضو في مجلس الأمن القومي المكلف مكافحة الإرهاب في شباط (فبراير) 2003 وإصداره كتاباً يتهم فيه إدارة بوش بأنها أهملت التهديد الذي تشكله القاعدة، نقطة سوداء في سجل رايس على رأس مجلس الأمن القومي. وأجبرتها هذه المعلومات على المثول أمام لجنة تحقيق مستقلة حول هذه الاعتداءات. وهي رفضت في مرحلة أولى أن يتم استجوابها متحججة بفصل السلطات بين السلطتين التنفيذية والتشريعية والمخاطر على سرية العلاقات بين الرئيس الأميركي وكبار مستشاريه قبل أن تقتنع بذلك بسبب ضغط الرأي العام.

والديبلوماسية ليس المجال الوحيد الذي تبرع فيه كوندوليزا التي

كانت أستاذة جامعية وشغلت منصب المسؤولة الثانية في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا. وهي لاعبة بيانو بارعة ولا تتردد في العزف أمام الجمهور مع كبار الأسماء في عالم الموسيقى الكلاسيكية مثل عازف الفيولونسيل يو يوما. واسمها غير المألوف اخترعته والدتها أستاذة الموسيقى مستوحية من كلمة «كون دولتشيسا» (بنعومة).

وخلال طفولتها التي كانت تصفها بأنها كانت سعيدة في برمنغهام (الاباما جنوب) عاصرت «كوندي» الاضطرابات العنيفة التي رافقت النضال من أجل حقوق السود المدنية.

وهي خبيرة في الاتحاد السوفياتي وتتحدث الروسية بطلاقة ولذلك دخلت إلى مجلس الأمن القومي في عهد الرئيس جورج بوش الأب (1989 ـ 1993). أما جورج بوش الابن الذي لم يكن ضليعاً في الشؤون الدولية فقد استدعاها بعد ذلك لتكون مستشارته الديبلوماسية خلال حملته الانتخابية الظافرة في العام 2000 قبل أن يعينها بعد انتخابه على رأس مجلس الأمن القومي.

كيتي أوغدن(*)
(Cathy Ogden)
(-   )

من أمهر الجاسوسات الإنكليزيات في باريس، والتي تمكنت من اغتيال الجاسوس الألماني الشهير «موريس فيشر». كيف نفذت هذه العملية؟ وما الحيلة التي لجأت إليها؟

كان يسير في حديقة الفندق الذي ينزل فيه بباريس عندما سمع وقع خطوات سريعة تقترب منه، فالتفت وإذا بأحد خدم الفندق يتقدم إليه في الظلام قائلاً:

ـ عفواً سيدي، انني أحمل رسالة إليك..

فتناول منه الرسالة، وفض غلافها، وأخذ يقرأها على نور مصباحه الكهربائي الصغير، وتولته الدهشة، فعاد يقرأها من جديد.. فقد كانت بضعة سطور كتبت بخط نسوي رقيق، مضمونها:

أوتيل بالاس ـ باريس

سيدي: توسمت فيك المروءة والشهامة، فخطر لي أن ألجأ

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. دار الكاتب العربي. بيروت 1992. ص31 ـ 36.

إليك من أجل خدمة معينة، فإذا شئت أن تلبي الرجاء فاحضر لمقابلتي تواً على السطح. . انك ـ ولا شك ـ تعرف جارتك ساكنة الغرفة 39 المجاورة لغرفتك. . إنني هي نفسها.

وتذكر الرجل في الحال صاحبة الرسالة. . كان قد رآها في بهو الفندق فخلب لبه جمالها الطاغي وشعرها الأشقر. . إنها نزلت بالغرفة المجاورة لغرفته، ولكنه لم يجرؤ على أكثر من مبادلتها التحية، وإن لم يفتأ يسائل نفسه عن سر حرصها على الابتعاد عن زملائها من نزلاء الفندق. . فهي تجلس إلى مائدة الطعام وحدها، وتتنزه في الحديقة وحدها، ولا ترى دائماً إلا منفردة بنفسها، مما كان يحفزه على أن يبحث ويستطلع عسى أن يعرف سرها. . ولكنها وفرت عليه عناء الاستقصاء إذ بعثت إليه بتلك الرسالة. .

ولم يتردد في تلبية الدعوة، فاتجه لفوره شطر «السطح»، حيث وجد الحسناء جالسة في أحد أركانه على مقعد كبير وفي يدها سيجارة كانت تنفث دخانها في شيء من الانفعال. . وبدا عليها الارتياح إذ رأته، فأشارت بيدها نحو مقعد تجاهها ليجلس عليه، فجلس وقد تكاثرت على ذهنه الأفكار والهواجس، فراح يسائل نفسه عن تلك المرأة. . أتكون من بنات الهوى؟. ولكنه لا يرى في لهجتها وملامحها دليلاً على ذلك. . إذن، فهل تكون من بنات المسارح؟. . ولكن حرصها على العزلة والانفراد، يتنافى وعادات هذا الصنف من النساء. . أتكون غير فرنسية؟. . كانت تتكلم الفرنسية بطلاقة، ولكنه كان يرى في ملامحها صورة أجنبية. .

وفيما كان غارقاً في حيرته، قالت:

ـ لا شك أنك دهشت حين تلقيت رسالتي، فليس من المألوف ـ

حتى في باريس ـ أن تلتمس امرأة خدمة من رجل تجهله ويجهلها . .

فأجابها وهو ينتقي كلماته:

ـ من النساء من يحصلن على ما يردن دون أن تبدو رغباتهن مزعجة لمن يلبيها . . وأنت يا سيدتي ممن وهبن هذه الميزة . . فأنا على استعداد للقيام بأية خدمة تطلبينها . .

ـ أأنت على ثقة مما تقول؟

ـ نعم يا سيدتي، فهل ترتابين في ذلك؟

ـ إن معرفتك بي غير وثيقة، فما أنا ـ بالنسبة إليك ـ غير امرأة التقيت بها في أروقة هذا الفندق . .

وشعر الرجل في هذه اللحظة بشيء من القلق، وخطر له أنه قد يكون جازف كثيراً بما وعدها به، ولكنها لم تترك له وقتاً للتفكير، فقد تحولت تحدثه بلهجة رقيقة:

ـ لقد تأكدت من أنك رجل شريف شهم. وسترى أن الخدمة التي أطلبها ليست عسيرة . . إنك، ولا شك، تعرف مارسيل اينوت؟

ـ الراقصة المشهورة؟

ـ هي بعينها . . لقد هجرها صديقها تاجر النبيذ، فأصبحت محرومة من 200,000 فرنك كان يقدمها لها كل سنة . . ولكي تسد هذا العجز في ميزانيتها عزمت على بيع عقد من اللؤلؤ تملكه، فراق لي أن أشتريه . . وقد اتفقنا على أن ترسل مارسيل هذا العقد، الليلة، إلى غرفتي بالفندق . .

وأصغى الرجل إلى كلامها كل الإصغاء، ولكنه لم يتبين الخدمة التي تعنيها منه . . على أنها ما لبثت أن عادت إلى الحديث قائلة:

ـ إني أدرك ما يجول بخاطرك وستفهم كل شيء في سياق كلامي. . لقد أحاط بمارسيل مذ هجرها صاحبها، رجال لا يوثق بهم أو يركن إليهم، وبينهم موريس فيشر ممثل السينما الذي يدعي أنه أجمل رجل في باريس. . والواقع أنني لا أطمئن إلى خلقه وأمانته، وقد رابني أنه يقوم بدور غريب في بيع العقد، فهو الذي سيحمله إليّ بعد لحظات. . وقد رجتني مارسيل أن أسلمه «شيكاً» بثمن هذا العقد، لأنها، على ما يبدو، تثق به. . ولما كنت لا أشاطرها هذه الثقة، لذلك رأيت أن أحتاط للأمر فخطر لي أن ألجأ إليك. .

ـ وماذا تريدين أن أفعل؟

ـ أن تتكرم فتصحبني إلى غرفتي لتقوم بدور الشاهد. .

ـ إني مستعد للقيام بهذه المهمة. .

ـ أشكرك كثيراً، وأرى أن تقف وراء الستائر فترى ما يجري دون أن يراك أحد. . لسوف أفحص العقد فحصاً دقيقاً، فإذا اطمأننت إلى قيمته، سلمت فيشر «الشيك» المتفق عليه على مرأى منك، وعليك أن تجثم في مخبئك، فلا تغادره إلا في حالة واحدة. .

وتطلع إليها في تساؤل، فاستطردت قائلة:

ـ إذا رأيتني في خطر. . لا شك أنك في هذه الحالة تفعل ما تقضي به النخوة والشجاعة.

واتفقا على أن يسبقها إلى داخل الفندق، فيتسلل إلى غرفتها، ثم تلحق به بعد دقائق، ذراً للرماد. . وإن هي إلا فترة وجيزة، حتى كانا يجلسان معاً في الصالون الذي تضمه الغرفة، والذي يقوم في أحد جوانبه باب يفضي إلى المخدع. .

وانطلق لسانها في محادثته، فذكرت له أنها تدعى «كلير ريمار» وأنها أرملة ضابط فرنسي كبير استشهد في الحرب. وتبسطت معه في الحديث حتى أحس بالكلفة تتلاشى بينهما، فعاوده حذره.. وارتدت إليه مع الحذر هواجسه، فراح يسائل نفسه أهي أفّاقة أم شريفة صادقة؟..

وبينما هو في هذا التساؤل انبعث رنين جرس التليفون فجأة.. وما كادت تضع السماعة على أذنها حتى قالت:

ـ نعم دعوه يصعد..

ثم التفتت إليه قائلة:

ـ لقد جاء.. يجب أن تتوارى وراء هذه الستائر..

وأسرع يلبي رجاءها.. وإن هي إلا لحظة، حتى أقبل رجل أنيق قابلته السيدة بالبشاشة والترحيب.. وتبادلا بضع كلمات، ثم رأى ـ من مخبأه خلال الستار ـ الرجل يخرج من جيبه لفافة من الورق فيقدمها للسيدة، وما لبث أن تبعها إلى الغرفة الداخلية.. ورأى الباب يغلق وراءهما..

ومرت لحظة.. ثم سمع الرجل المختبئ وراء الستار صوت طلق ناري صادر من الغرفة الداخلية.. أعقبه طلقان آخران متتابعان.. فذهل وجرى مسرعاً إلى باب الغرفة، ولكنه ألفاه مغلقاً من الداخل، وعاد إلى الباب المفضي إلى ردهة الفندق فوجده مغلقاً من الخارج... ورأى نفسه كالأسير في مأزق حرج يشوبه الغموض. وبادر يعالج قفل الباب الأخير.. ولكنه لم يفلح.. فقد فاجأه أهل الفندق الذين أقبلوا على أصوات الطلقات..

وسرعان ما ظهر أن الرجل الذي استقبلته السيدة والذي جاءها باللفافة قد قتل في الغرفة الداخلية..

وكان موقف الرجل الشهم كفيلاً بأن يلقي عليه الشبهات، فقبض عليه وعبثاً أنكر علاقته بالحادث وضاعف من حرج موقفه أنه وإن كان من أصدقاء الألمان ـ الذين يسيطرون على فرنسا إذا ذاك ـ إلا أن مسلكه كان يثير ريب الغستابو.. وكانت الشواهد توحي بأنه يخدع الألمان، ويتعاون مع الحلفاء.. فجاء هذا الحادث مدعماً للريبة.. إذ أن القتيل «فيشر» كان من زعماء جواسيس الألمان الأجانب الذين حيروا مخابرات الحلفاء.. ومن ثم أيقن رجال الغستابو أن للرجل يداً في اغتيال «فيشر» فأعدم رمياً بالرصاص..

أما السيدة الحسناء فلم تكن سوى «كيتي أوغدن».. وكانت من أمهر الجاسوسات الإنكليزيات، وقد أوفدتها إدارة المخابرات البريطانية خصيصاً لتقضي على «موريس فيشر» و«بزيات»، فتفتق ذهنها الجبار، عن هذه الخطة البارعة.. إذ نسجت قصة العقد المزعوم، لتجمع بين الاثنين في مكان واحد يكون فيه حتفهما. فقتلت الجاسوس الألماني وتركت تهمة قتله تلصق ببزيات صديق الألمان.. وعاونت كيتي في خطتها الراقصة الباريسية مارسيل اينوت التي أدت أجل الخدمات للحلفاء خلال الاحتلال الألماني لفرنسا..

ولقد تبين رجال الغستابو حقيقة ما حدث فلم يكفوا عن تعقب كيتي أوغدن.. حتى عثروا عليها بعد شهرين.. وكانت لا تزال في باريس وقد تنكرت في هيئة عجوز شمطاء تعمل في مصنع للشيكولاتة، وتواظب على القيام بواجبها.. فأعدموها رمياً بالرصاص.

كيم سويم(*)
(Kim Suimm)
(1950 ـ 1913)

هي إحدى أشهر جاسوسات كوريا الشيوعية ضد كوريا الجنوبية والولايات المتحدة، حيث اتخذت من عشيقها الأميركي ستاراً لممارسة نشاطها التجسسي، إلى أن اعتقلت ونفذ فيها حكم الإعدام في جمهورية كوريا عام 1950. كيف كان ذلك؟

لقد كان الشيوعيون يتقدمون من ضواحي سيول تلك المدينة المثخنة بالجراح والتي تقع في وسط كوريا المتهدمة، وهم يدفعون أمامهم القوات الأميركية وقوات الأمم المتحدة، ولم يكن هناك أي إنسان يستطيع أن يعرف فيما إذا كان الجنرال دوغلاس ماك آرثر سيتمكن من إيقاف هذا الزحف البشري.

وكانت كيم سويم تأمل بكل عواطفها وتتمنى من كل قلبها بأن ينتصر الشيوعيون، لأنهم إذا لم يتمكنوا من القضاء على سيغمان ري وإذا لم يتم إجبار الجيش الأميركي للتخلي عن جمهورية جنوب كوريا فسيتم إعدامها في يوم الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) لعام

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص573 ـ 586.

1950 كجاسوسة من أخطر الجواسيس الذين أمكن اعتقالهم في كوريا.

ولكنها لن تعرف مطلقاً معنى الحرية، كما انهار آخر آمالها، عندما وقف الكاهن القانوني الذي كان يرافقها من سجن سيول إلى مطار كيمبولا ليطلعها على حقيقة الموقف ويشرح لها بأنه لم يبق أمامها أي أمل لكي يصل الشيوعيون في الوقت الملائم فيعملون على إطلاق سراحها وتحريرها.

وبقيت كيم سويم محافظة على صمتها طوال الرحلة التي كانت بواسطة سيارة جيب عسكرية ذلك أنهم كانوا قد أعطوها وعداً بأن ترى والديها قبل أن ينفذ فيها حكم الإعدام، وتساءلت عن الطريقة التي يتم فيها تنفيذ هذا الإعدام، فسألت الكاهن:

ـ هل سيعملون على إعدامي شنقاً؟.. ولكن الكاهن لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك.

ـ هل سيعملون على إطلاق النار على ظهري؟.. وكان الكاهن دائماً في حالة عجز عن إجابتها.

ـ وهل سيضعون عصابة على العينين؟.. وعندئذٍ قال لها الكاهن بصوت عذب رقيق:

ـ نعم أعتقد ذلك، وسأكون إلى جانبك، فكوني رقيقة مع والديك، إنك لن تستطيعي البقاء معهما طويلاً، وإنهما قدما من بعيد، فتصرفي معهما بشكل جيد.

وعندما وصلوا إلى المطار الذي كانت القنابل قد دمرته تدميراً كبيراً، لاحظت كيم مباشرة وجود مجموعة من الرجال، فعرفت بأن

الأمر يتعلق بفصيلة الإعدام، وكان بابا سان ووالدة كيم ينتظرون على مسافة بعيدة نسبياً، وكانت الدموع تترقرق في عيني المرأة الكهلة المتعبة ولكنها لم تتفوه بأية كلمة عندما كانت متجهة للقاء ابنتها وكل ما فعلته أنها بسطت ذراعيها، وأحاطت بكتفي كيم وداعبت لها خصلات شعرها وحاولت تقبيلها.

أما والدها، والذي كان يرتدي أسمالاً بالية، وينتعل حذاء عتيقاً، فقد وقف جامداً وكأنه تمثال من التماثيل. كان عمره لا ينقص عن السبعين عاماً، وقد ارتسمت على وجهه آلاف الأخاديد والتجاعيد، وهي تصور المحن والنوائب والحرمان والجوع الذي عاشه هذا الرجل.

وكان شأنه في حياته هذه شأن الملايين الآخرين من شعب كوريا إذ قضى حياته بعمل شاق دون أن يتعرف على شيء آخر سوى طعام هزيل من الرز؛ وربما صادفه أن ذاق طعم اللحم مرتين فقط في العام الواحد، ولم يكن قد راوده الأمل ليصادف أياماً أجمل من الأيام التي عاشها، لأن الأمل في حد ذاته كان شيئاً يصعب عليه أن يتذوقه أو يحس به.

رأى الكاهن في هذا الرجل نموذجاً لذلك التمثال الشرقي الصغير، الذي يذكر بأنه كان قد رآه على طاولة والدته، ذات الوجه المتغضن، والأصابع الطويلة، والذقن المستندة على الصدر بدون أن يكون الرأس قد انحنى فعلاً إلى الأمام، والجسد مصاب بفقر الدم، وصاحبه مصاب بالصبر والزهد، وكان التمثال مغرياً بالنسبة للكاهن عندما كان صبياً صغيراً، على اعتباره نموذجاً نادراً وفريداً من نوعه، وها ان الكاهن يقع على النموذج الحي وقد أدرك مقدار الفرق بين

الأصل والتمثال الصغير، فالتمثال الصغير يمكن تحطيمه وكسره، أما النموذج الحي فلا يمكن أن يناله الكسر، وكل ما يمكن أن تصيبه به الأيام لا يزيده إلا جراحاً على جراحه.

وقال هذا الرجل الكهل وهو يوجه حديثه إلى الكاهن:

ـ إنني أعرف ما هي الديانة، ولكن كيم سويم فتاة طيبة، ولقد عملت على مساعدتنا عندما كان ذلك في استطاعتها، وانها لم تنسنا أبداً، عندما كانت تقيم في المدينة بعيدة عنا، ألا تستطيع مساعدتنا أيها الكاهن؟..

وكان الكاهن يعرف بأن تلك المساعدة تخرج عن إمكاناته، فلو أن السلطات الأميركية هي التي أصدرت الحكم لكان هناك احتمال لإيجاد الوسيلة في سبيل تأجيل تنفيذ الحكم، أو إعادة النظر فيه، كما أن الأميركيين يترددون كثيراً في تنفيذ حكم الإعدام بامرأة، ولكن حكم الإعدام على كيم قد صدر عن محكمة كورية ولم يرغب أي شخص في أن يتدخل بأمرها، ذلك لأنه بفضل ما أقدمت عليه كيم سويم تمكن الشيوعيون من الوصول مجدداً إلى أبواب سيول وهم على وشك الاستيلاء على عاصمة كوريا الجنوبية.

وهز الكاهن بكتفيه وهو يصور تلك الحركة بمثابة عجزه عن القيام بأي عمل..

وفجأة أصبح بابا سان الرجل الكهل ثرثاراً، وطليق اللسان للمرة الأولى في حياته، وهو يحاول محاولة يائسة في سبيل إنقاذ ابنته، وكان رجال فصيلة الإعدام قد بدأوا ينتظمون في صف واحد، ويتخذون استعداداتهم عندما قال بابا سان:

ـ كنت أعتقد في بداية حياتي بالروح والإيمان، كما كانت تعتقد

دائماً ماما سان ولكن المعتقدات لا تستطيع أن تسرع لمساعدتنا، فإن اليابانيين لم يعلمونها الإيمان والاعتقاد بربّهم شينغو، ولذا فإنني لا أستطيع أن أطلب منهم العون، ولكنكم أنتم المؤمنون بالمسيح، ألا يستطيع ربّكم أن يساعدنا؟. لأنني لا أعرف أي شيء عنه.

أحس الكاهن بضيق في حلقه ولم يعرف بماذا يجيب، لكنه تمكن من النطق ببعض جمل التعزية والمؤاساة، عندما تقدم النقيب قائد فصيلة الإعدام من سيارة الجيب، وكان بابا سان وماما سان قد انخرطا في البكاء، بينما كان الاضطراب ظاهراً على الكاهن وهو يرى الضابط يعمل على اقتياد كيم ثم ليضع عصابة على عينيها، ويرافقها إلى قرب جدار لأحد مباني المطار وقام الكاهن بصلاته، عندما كانت كيم تموت ميتة فيها الكثير من الشجاعة، فقد اخترقت خمسة رصاصات جسدها، ووجدت إحدى هذه الرصاصات طريقها إلى قلب الفتاة، وبذلك تم إسدال الستار عن عمل من أضخم أعمال الجاسوسية في كوريا.

بعد ذلك بعام واحد، تصادف أن تقابلت مع ذات الكاهن، أثناء رحلة إلى الأرض المقدسة، وبينما كنا نتدحرج ونحن نجتاز الصحراء ليس بعيداً عن بيت لحم أعاد الكاهن تصوير مشهد الإعدام الذي تم تنفيذه على أبواب سيول، وأراد الكاهن أن يعرف ما هي المعلومات التي أعرف عن حياة كيم سويم لأنني كتبت عدداً من المقالات والتحقيقات عن أعمال هذه الجاسوسة، وقد قطعت له وعداً بأن أقول له ما أعرفه لقاء شرط واحد، فسألني الكاهن:

ـ وما هو هذا الشرط؟.. وعندئذٍ أجبته:

ـ لقد كتبت سيرة المئات من الجواسيس، ولكنني أريد أن أعرف

رأيك في الأسباب التي دفعت كيم سويم للقيام بأعمال الجاسوسية، وبما أنك كاهن، فإني على يقين بأنك تستطيع فهم الروح الإنسانية أفضل بكثير من الكثيرين منا نحن، وأن معرفة الأسباب التي دفعت بهذه الفتاة للقيام بتلك التصرفات تهمني وتفيدني أكثر من الأعمال ذاتها والتي عملت على القيام بها.

- إنني ربما كنت أعرفها أقل منكم، فقد رأيتها، وعملت على اقتيادها إلى فصيلة الإعدام، ولذا فإنها لم تقل لي أشياء لها أهميتها أثناء ذلك.

- ولكنك تعرف الأبوين، فماذا قالا لكم عنها؟.. وماذا تعرفون عنهم؟.

- حسناً، لقد أحضرناهم إلى مركز الإرسالية، حيث قدمنا لهم الطعام الذي كان يتكون من اللحم والرز والسمك، كما قدمنا لهم طروداً من الأطعمة، ولكن حياتهم لم تكن لتختلف عن حياة الملايين الآخرين ممن يعيشون حياتهم البائسة في أرياف كوريا.

فقلت له:

- استمروا في حديثكم، فهل يمكن أن يكون الفقر سبباً ليصبح أحدهم جاسوساً؟..

فقال الكاهن: ولماذا لا؟..

- وهل من الممكن أن يجعل الحرمان من الأغذية من أحدهم جاسوساً؟..

وأجاب الكاهن بهدوء:

- ليس في أميركا.. أو في انكلترا.. ولكن في آسيا نعم وبالتأكيد.

وعند الوصول إلى هذه النتيجة المنطقية، انحلت عقدة لسان الكاهن، فانطلق يحدثني عن كل ما كان يعرفه عن كيم سويم وكأنه كان يتخذني كعالم من علماء النفس، وكمحلل نفسي أستطيع أن أترجم مسالك أفكار الجاسوس، لا سيما الأسباب التي دفعت بتلك الفتاة الريفية الكورية للعمل على خيانة بلدها، وكان مما قاله لي:

ـ لقد عرفت كيم سويم البؤس منذ نعومة أظفارها عندما كانت تعيش مع عائلتها وأدركت معنى الفقر المدقع الذي كانت ترزح تحت عبئه، ورأت أمها وهي تعمل في زراعة الرز، ذلك العمل المجهد الذي ينقصم له ظهر أي إنسان فيما إذا عمل بتلك الحقول الموحلة الطينية، وكانت تتقاضى أجرة عملها كمية من محصول الرز، وكانت بعد أن تتقاضى تلك الكمية من الرز شهرياً تعمل على تقديمها لكي تستهلكها تلك العائلة بحيث لا يتبقى أي شيء منها، وبما أن العائلة كانت لا تمتلك النقود لشراء أي نوع آخر من الأغذية، ولذا فإنهم لم يستطيعوا أبداً أن يجدوا ما يسدون به رمق الأفواه الجائعة. وكان لهذه العائلة ستة أولاد وكانت الغرامة التي فرضت على وجود هؤلاء الأطفال تتلخص في قيامهم بجمع القاذورات من القرية لتأمين السماد لحقول الرز، ولم يكن طبيعياً أن يتلائم هذا النوع من العمل مع عمر الأطفال.

وانه من المستحيل تقريباً تخيل الأسلوب الذي تستطيع بواسطته مثل هذه المخلوقات التغلب على الحياة، إن العقلية الشرقية فقط تستطيع التغلب على صعاب مثل هذه الحياة، وتحمل مثل هذا البؤس، والشقاء، وكانت العائلة تفترش الأرض، ويلتصق كل منهم بالآخرين وهم يلتحفون الأغطية المهترئة التي لا تزيد على كونها أسمالاً بالية، وكان الوقود الوحيد الذي يشعرهم بالدفء هو إحراق

الأخشاب التي كانوا يجمعونها من فوق الهضاب، وكانت ماما سان تقوم بهذا العمل مع أطفالها.

ثم أصبحت الحياة أكثر صعوبة في فترة الاحتلال الياباني، ذلك أن بابا سان كان مجبراً للعمل بدون راتب لمدة أربعة أيام من كل أسبوع، وكان قبل ذلك يستطيع القيام ببعض الأعمال التي تؤمن لهم دخلاً إضافياً، وكانت هذه الأعمال متممة لدور الخيول، إذ كان يعمل على قطر عربة يحمل فوقها أي شيء لنقله من محطة الخط الحديدي إلى أي مكان، كما كان على استعداد للقيام بأي عمل لمن كان على جانب من الغنى بحيث يستطيع أن يدفع له أجرته الزهيدة.

ومن البديهي بأن الكوريين من أمثال بابا سان لا يعرفون من هو الطبيب، أو ما معنى عمل طبيب الأسنان لأن الناس وهم على مثل هذه الدرجة من الفقر، يفضلون أن يكون عندهم الرز ليأكلونه بدون أسنان، عوضاً من أن يكون لديهم أسنان ولا يوجد عندهم الرز، ليأكلونه. ولقد نشأت كيم في هذا الوسط اليائس من الفقر، والمرض والأقذار والجهل والحرمان من كل رفاهية في الحياة، ومع كل ذلك، وحتى هؤلاء الأشخاص البؤساء والمحرومين فقد كانت لهم أحلامهم الخاصة، وكانت أحلامهم هذه تقتصر على شيء واحد، هو تملك قطعة صغيرة من الأرض، سواء كانوا سيرثونها إرثاً أو سيتمكنون من شرائها، أو سيسرقونها أو سيحصلون عليها بشكل أو آخر، وعلى قطعة الأرض الصغيرة هذه، سيزرعون الرز.. وستنمو سنابله. تلك كانت أحلامهم.

وسألت الكاهن:

ـ وهل ان الفرار من الشقاء هو الذي جعل من كيم سويم جاسوسة؟..

وأجاب الكاهن الذي فاجأني بتعقيبه:

ـ ربما كان ذلك، ومع إعجابي واحترامي للديمقراطية، إلا أنني أعرف بأن الكوريين لا يمكنهم أن يأكلوا من الديمقراطية ولكنهم يستطيعون أكل الرز، ولقد قال لهم الروس بأن يسرقوا ويقتلوا ويعملوا على مصادرة الأرض، وعندئذٍ سيصبح الرز في متناول أيديهم.

وفي الواقع، فقد كنت أعرف الكثير من الأشياء عن كيم سويم بل أكثر مما كنت أرغب في معرفته عنها، إذ كانت خليلة لضابط أميركي برتبة عقيد يعمل في حامية سيول ولقد قاده الاتصال بها والعلاقة التي أقامها معها إلى مجلس عسكري، وكنت أعرف تلك الوقائع بكل ما فيها من برودة التعري، ولكنني لم أكن مطلقاً على اطلاع بمجريات تلك المأساة الإنسانية التي كانت تختفي خلف تلك الوقائع.

كانت الإضبارة التي يتراكم الغبار فوقها وهي محفوظة في الجيش، تتضمن وصفاً لما قامت به وبأنها واحدة من الذين يحملون «إجازة في تعليم الحب» وقد كانت كيم على جانب كبير من الجمال، ولم تكن السياسة قبل عام 1942 تعني بالنسبة لها شيئاً، ولم تكن تعرف إلا شيئاً واحداً هو ألا تعود إلى عالم البؤس الذي كان يعيشه أقاربها.

وفي عام 1942 تقابلت كيم للمرة الأولى في حياتها مع شاب شيوعي أثناء اجتماع يعقده الوطنيون في سيول. وكان ذلك الشاب الكوري، جميلاً وجذاباً، اسمه لي كينغ كوك وقد تمكن من إغرائها بعد اللقاء الأول بمدة قليلة، فأحبته حباً جنونياً، ولقد استفاد منها لي أكثر ما يستطيع ثم أدرك بعد ذلك بأن هذه الفتاة تستطيع أيضاً أن

تخدمه في أشياء أخرى غير الحب، فقرر الرفيق لي عندئذٍ أن يجعل منها جاسوسة شيوعية رائعة فقال لها:

ـ إنك مثقفة، كما أنك نشأت على أيدي التقليديين، ولذا فإن الشك لا يخامر أحداً في أمرك فيما لو عملت في صفوف الشيوعيين.

وكانت تعمل في تلك الفترة، في مدرسة طب الأسنان، من معهد سيفيرانس كوليدج واستسلمت تحت تأثير لي لاتباع دورة مسائية في مدرسة خاصة لتعليم الأشخاص الشيوعيين، وكانت تلك المدرسة تسمى على سبيل التهكم «جامعة ماتا هاري الحمراء».

وكانت مدرسة الإغراء هذه تعمل على إعداد موجات متتالية من العاملات في الحركات الشيوعية في الصين، واليابان، وماليزيا، وبرمانيا، وسيلان، وكوريا واندونيسيا. كانت هذه المدرسة تعمل مبدئياً ضمن التنظيمات السرية المناضلة للاحتلال الياباني أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكن العقول التي كانت تعمل خلف الستار اتخذت ترتيباتها للاستفادة والإعداد للمستقبل قبل كل شيء فكانوا يهدفون للإفادة من الذين يحملون إجازات تلك المدرسة للعمل كعناصر فعالة في النضال من أجل السلطة عندما تضع الحرب أوزارها، ويكون العالم الرأسمالي مشلولاً، أو على الأقل في وضع مرتبك أثناء الفترة الانتقالية بين الحرب والسلم.

وكانت هذه المدرسة تطلق الشعارات المغرية والتي كان لها وقع مثير على غرار «ليسقط الاستثمار» و«ليسقط الجوع» و«حرب على القصور ـ وسلم للأكواخ» وكان لهذه الشعارات أثرها في اجتذاب أكثر من شاب من أوساط الطلاب الآسيويين.

وفي جامعة ماتا هاري الحمراء كانوا يقدمون التفسيرات

الصريحة للطالبات من أمثال كيم سويم على أن ما يمتلكنه من الفتنة الجسدية سيساعدهن للحصول على المعلومات السرية عندما يستخدمن هذا السلاح للتأثير على الرجل، وكان تعاطي البغاء للحصول على هذه الغاية، أمر من الأمور التي يتم تعليمها في هذه المدرسة.

وكان منهاج دراسة هؤلاء الفتيات يتضمن على سبيل المثال:

1 ـ استخدام الأدوية والعقاقير الطبية.

2 ـ المبادئ الصحية العامة والعناية الجسدية.

3 ـ الإجراءات الوقائية ضد الأمراض الزهرية، واستخدام الوسائل المضادة لهذه الأمراض.

4 ـ كيف يتم إعطاء السموم لضحية ما.

5 ـ كيف يتم التخلص من شخص غير مرغوب فيه.

6 ـ كيف يتم استخدام المواد المخدرة المنومة.

كما كان يتم تعليم الطالبات من أنه سيتعرضن للدخول إلى غرف ضحاياهن، عندما يكون الضحية قد استسلم للنوم، ثم القيام بتفتيش الجيوب والمكتب وغرفة النوم، كما كانت فتيات معهد ماتا هاري يخضعن لدراسة فن التصوير الفوتوغرافي، وكيفية استخدام آلات التصوير الصغيرة الحجم جداً، بالإضافة لاستخدام الأجهزة اللاسلكية العاملة على الموجات القصيرة، واستخدام المصطلحات والرموز. ولقد أمكن الكشف عن الأسلوب التدريسي الحديث والذي تدربت عليه كيم بواسطة رسالة يمكن اتخاذها كنموذج لذلك، وكانت كيم قد بعثت إلى لي بتلك الرسالة التي تعتبر بعض فقراتها ذات ميزة خاصة.

ومن هذه الفقرات المميّزة مثلاً:

ـ قاعة الشاي: وتعني مكان المقابلة لأجل تسليم المعلومات.

ـ الشمس: وتعني بأن الأمور تسير على ما يرام.

ـ ربح: وتعني بأنه أمكن الحصول على معلومات هامة.

ـ كنيسة سانت ماري: وتعني قطع العدو البحرية.

كل ذلك كان يتم تعليمه أثناء تلك الدورات التدريبية لإعداد جواسيس المستقبل الكوريين، ولكن مدرسي كيم كانوا قد تعمدوا نسيان ذكر تلك الحقيقة بأن نسبة اثنين من كل ثلاثة جواسيس لا يموتون على أسرّتهم، إنما يقتلون قتلاً، ولذا لا بد لها من أن تتعلم هذه الدروس وحدها. وعلى حسابها، ولكنها ستتعلمه بعد فوات الأوان.

ومرت الفترة التدريبية على خير ما يرام، كما كانت الرواتب مرتفعة وكان الروس على ما يبدو يمتلكون كميّة كبرى من النقود التي يعملون على توزيعها. وأخيراً أقبل اليوم الذي تم فيه إسناد أول مهمة إلى كيم سويم.

تظاهرت كيم بأنها اهتدت إلى الدين المسيحي، وبهذه الصورة انضمت إلى الجماهير التي كانت تهتف للقوات الأميركية التي قدمت لتحرير البلاد من المحتل الياباني، بصفتها عضوة في جمعية الاستقبال العاملة للترحيب بقوات التحرير الأميركية.

وكانت كيم تتمتع بالكثير من الإمكانات التي تساعدها لمثل هذه الأعمال، فقد نشأت في أحضان إحدى البعثات التبشيرية، كما كانت تتكلم اللغة الإنكليزية وكانت دمثة الخلق، وفائقة الجمال، وقد ساعدتها هذه العوامل في اجتذاب أكثر من ضابط إليها، وكان كل

ضابط يشعر بأنه الوحيد في دنياها، وقيل لها بأن لا تضيع وقتها بالاختلاط مع صف الضباط، بل عليها أن تهتم بالضباط فقط والاقتصار على ضباط القيادة إذا كان ذلك ممكناً.

ولم يتم تقدير إمكانات كيم سويم للعمل في الليل فقط، إذ كانت على مستوى جيد بحيث تستطيع العمل على مقسم هاتف القيادة العامة للجيش الأميركي في كوريا والتي كانت مقيمة في «مانتو هوتيل» الشهير، ولقد تلقت نبأ هذا التعيين وهي أكثر من سعيدة في أن تحصل على مثل هذا العمل الرائع. وشاركها في ذلك عشيقها لي الشيوعي الصيني، بالإضافة لمنظمات الاستخبارات السرية السوفياتية، إذ كان باستطاعة كيم آنئذٍ أن تقابل كافة الذين يترددون على القيادة، كما كانت تستطيع الإصغاء إلى كافة المحادثات الهاتفية التي كانت تتم بين طوكيو وواشنطن وكان بإمكان عشيقها الشيوعي أن يعلم بكل شيء يجري في القيادة بعد حدوثه بساعات قليلة.

وبعد ذلك، وقع ضابط برتبة عقيد من ضباط القيادة العامة في حب كيم وأحبها حباً عنيفاً، وقد اتخذت أوضاعها بحيث أنها تقبلت حبه بتواضع وبكثير من السحر الذي تتميز به فتيات الشرق، وقد ساعدها ذلك الضابط على غير إرادة منه فقدم لها الحماية اللازمة، وهيأ لها الظروف المناسبة للحصول على أكثر المعلومات أهمية والتي عملت على نقلها إلى السوفيات، وقد أعلمت هؤلاء عن الاختلاف والتناقض الموجود بين الجنرال مارك آرثر والرئيس الأميركي ترومان وكان من أهم الأنباء المتعلقة بهذا الخلاف هو رفض الولايات المتحدة الأميركية لتجاوز النهر الأصفر.

بعد أن قرروا التوقف عند خط العرض 38 درجة، قضت كيم

زهاء السنة وهي تعمل في القيادة العامة في سيول ولم يكن باستطاعة الروس أن يتخيلوا فعلاً الحصول على وضع أفضل من هذا الوضع بالنسبة لجواسيسهم.

ولكن كيم تمكنت من الحصول على وضع أفضل من ذلك الوضع، إذ تم تقديم مركز جديد لها بواسطة الكولونيل الأميركي وفي الواقع فقد كان تعيينها في هذا المركز الجديد بمثابة شكر وعرفان بالجميل. لما كانت تقدمه كيم من المسرات الليلية، وأصبحت تتقاضى مرتباً ضخماً لقاء عملها الجديد في مكتب الحاكم العسكري الأميركي، أي في ذات منظمة مكافحة الجاسوسية، وقد مكنها مركزها والذي لم يتمكن من الوصول إليه إلا قلة من الآسيويين الذين كانوا يعملون في الجاسوسية من الحصول على نسخ من الوثائق السرية للغاية حيث كانت تعمل على تصويرها بواسطة أفلام صغيرة جداً ميكروفيلم لتعمل على إرسالها بعد ذلك.

وكما فعلت ماتا هاري من قبلها عملت كيم سويم فيما بعد، إذ استفادت من حماية عشيقها الأميركي، فأقامت في منزل جميل من شارع كينغ جاد، حيث كانت تستقبل فيه اليابانيين والصينيين، بالإضافة للضباط الأميركيين، والكوريين، وآخرين من أعضاء بعثات الأمم المتحدة، وعلى الرغم من أنها كانت تعيش حياة سعيدة فإنها كانت تبعث بالنقود بشكل منتظم إلى عائلتها التي لم تنتقل أبداً من كوخها. وقد كان البؤس وشقاء ماضيها خير عون لها لكي تعطي الانفعالات التي تؤكد عجزها وعدم حيلتها، وبأنها فتاة مغلوبة على أمرها. كانت ترتدي ثياباً أنيقة، ولكنها لم تتصرف أبداً تلك التصرفات التي تشير إلى أنها تمتلك الكثير من النقود، وكان هذا السبب بالذات أكثر من أي سبب آخر، هو الذي وضع ضباط مكافحة

الجاسوسية الأميركية في حيرة من أمرها إلى أن أقروا بقبولها كما هي وبأن تصرفاتها مطابقة تماماً لواقعها، ولا مجال للشك في أمرها، وبذا كانت نظراتهم لها لا تزيد عن كونها عشيقة العقيد، المغرية، وأنها لا يمكن أن تعمل في منظمة لخدمة بلد آخر. وبذا تمكنت من النجاح في تمويه واقعها بعد أن أصبح منزلها مركزاً من مراكز جاسوسية الشيوعيين في قلب سيول.

وقد أمكن تعليم عدد من الجواسيس قبل أن يتم إرسالهم لتنفيذ مهماتهم تحت سقف منزلها دون أن يشعر أي إنسان بذلك، كما أمكن العثور في منزلها بعد أن تم اعتقالها على كافة أدوات الجاسوسية، بدءاً من بطاقات المصرف الأميركي ونهاية بالمنشورات الشيوعية، ومروراً بالقطع المنفصلة والمستخدمة في جهاز اللاسلكي ذي الموجات القصيرة والرموز والمصطلحات بالإضافة لمختبر لأعمال التصوير.

وأخيراً أقبل اليوم الذي غادر فيه عشيق كيم الأميركي البلاد الكورية. وقد تظاهرت بأن قلبها قد انفطر لفراقه. كانت قد أصبحت في هذه الفترة من أكثر السيدات ذكاء وأوسعهن معرفة من كل ما عداها في سيول. وعندئذٍ أصدر الشيوعيون أوامرهم إليها من جديد أيضاً بأن تتابع التجسس على حكومة سيغماي ري وعلى جيشه واتفاقاته السرية مع واشنطن.

ولكن لسوء حظها لم تتمكن من ذلك إذ تم اعتقالها بعد أن سافر عشيقها بمدة قليلة وقالت لهم إنني بريئة. وأجابها الكوريون على ذلك بلهجة جافة:

ـ إننا على معرفة بأعمالك ونشاطك منذ زمن طويل، ولكن

بعضاً من أصدقائك الأميركيين قد عملوا على حمايتك، وكنا مجبرين على تجنب إثارة أية فضيحة، ولكننا الآن أحرار في العمل، بعد أن سافر صديقك الأميركي.

وابتدأت المحاكمة في الثامن من حزيران (يونيو) لعام 1950 وقد اتهمت بالتجسس والسرقة والتآمر والخيانة وهلم جراً، حتى يصل مجموع الجرائم إلى ستة وعشرين جريمة أخرى ارتكبت ضد جمهورية كوريا.

وتم تنفيذ حكم الإعدام بكيم سويم في يوم الثامن والعشرين من حزيران عام 1950.

كيمي شميدت(*)

(Kimmy Chmidt)

(-)

هي إحدى عميلات المخابرات الألمانية النازيّة.

وقد ركز أدولف هتلر مع بداية الحرب العالمية الثانية على العنصر النسائي المميز في عمليات التجسس وجلب المعلومات، وقال في هذا الصدد:

«إن المرأة الألمانية أنفع بكثير من الرجل في عالم التجسس. وإنني شديد الإعجاب بذكائهن وخططهن النسائية نظراً لتفوقهنَّ بسلاح الإغراء وقدرتهن الهائلة على وضع الطعم القاتل لفريستهن في جو هادئ.. حقيقة إن النساء لأعظم قوة كامنة في حزبنا السياسي» (راجع ألمانيا الهتلرية للأستاذ خيري حماد).

كلف هتلر رئيس مخابرات رينهارد هيدرينبج بإنشاء شبكة جاسوسية من الفاتنات الألمانيات. واستطاع رينهارد مع بداية العام 1939 تشكيل هذه الشبكة النادرة بعد أن سبق تدريبهن جميعاً على أعمال الجاسوسية وتوزيع هذه الشبكة على عدد من بيوت الدعارة الألمانية.

(*) المرجع: سعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». ص68 ـ 69.

تزعمت عمل هذه المجموعات امرأة ألمانية تدعى كيمي شميدت استطاعت بمساعدة رئيس مخابرات هتلر أن تزرع كل غرف المتعة في بيوت الدعارة التي تديرها بأحدث ميكرفونات التسجيل. وما أنجزته هذه الشبكة كان مذهلاً.

كل ذلك تم فوق سرائر غرف النوم المريحة المزوّدة بكل وسائط اللذة. إذ استطاعت كشف العديد من عمليات تهريب الأموال لليهود من ألمانيا للخارج، وكذلك كشف الكثير من القوى المعارضة لسياسات هتلر، مدنيين وعسكريين، وأكثرهم من الرتب العليا في الجيش الألماني. وقد استمر عمر هذه الشبكة الجاسوسية النسائية لغاية اندحار ألمانيا بالحرب وانتفاء الحاجة للجاسوسية بعد سقوط ألمانيا أمام قوات الحلفاء وانتحار هتلر.

حرف اللام

1 ـ لويز دو بيتيني
2 ـ لويز دي كوريالي
3 ـ لي شوزينغ
4 ـ ليديا فان هيردين
5 ـ ليديا كوزا زوفا
6 ـ ليديا مردوخ سيمونفيتش
7 ـ ليزا بيا سيلا
8 ـ ليزي ويرتهيم
9 ـ ليلى مسعود
10 ـ ليلي بيتال

لويز دو بيتينيي(*)
(Louise de Pitiniyi)
(- 1918)

هي إحدى جاسوسات الاستخبارات البريطانية ضد الألمان في الحرب العالمية الأولى.

ففي شهر تشرين الأول (اكتوبر) من العام 1914، وكما فعل الكثيرون من سكان شمال فرنسا وبلجيكا، غادت لويز دو بيتينيي مدينة «ليل» هرباً من قوات الجنرال ألكسندر فون كلوك، قائد الجيش الأول الألماني والتجأت إلى انكلترا. وقام ضابط من الاستخبارات البريطانية باستجوابها خلال نزولها من الباخرة في مرفأ فولكستون، فأمدته بسيل من المعلومات التي كانت جمعتها قبل فرارها. وقد أُعجبت الاستخبارات البريطانية (الأنتليجانس سيرفيس) بذكائها وقوة ملاحظتها ومعرفتها التامة باللغتين الإنكليزية والألمانية، فاقترح الميجور إدوارد كاميرون عليها العودة إلى المنطقة المحتلة لمدّ الحلفاء بمعلومات حول تحركات جيوش القيصر ومعنويات الجنود الألمان. وعلى هذا النحو تخلّت لويز دو بيتينيي المتحدّرة من أعرق العائلات في شمال فرنسا،

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا ايتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». دار الفاضل. دمشق 1998. ص226 ـ 229.

عن رياضة الغولف وركوب الخيل، لممارسة رياضة أكثر خطورة ألا وهي التجسس.

بعد أن زُوِّدت الشابة بأوراق هوية مزوّرة باسم «أليس دوبوا» وتنكرت بشخصية تاجرة أقمشة، عادت لويز إلى مدينة «ليل» حيث أقامت شبكتها الخاصة وجندت أربعين عميلاً، من بينهم الكيميائي «جيتر»، صانع الأحبار اللطيف، والخبير بالخرائط «بول بيرنار» الذي نجح في كتابة 1000 كلمة تحت طابع بريدي، فكانت تلك مأثرة بحق. ومن أجل إيصال تقاريرها إلى هيئة أركان الميجور كاميرون التي ضمّت، في خلال أربع سنوات من الحرب، أكثر من أربعة آلاف رجل وامرأة تحت إمرته، اتخذت لويز مساعدةً لها من مدينة «روبيه»، وهي امرأة تضارعها ذكاء تدعى ماري ليوني فانهوت الملقَّبة بشارلوت. وكانت المرأتان، بعد أن تتنكَّرا تارة بزي بائعات الأجبان، وتارة أخرى بزي الخياطات، تجتازان، في كل أسبوع، حدود هولندا لإيصال المعلومات التي تمّ جمعها. كانت الرسائل تُخفى في كعب حذاء أجوف أو في مقبض مظلة أو في حوافي صدرية نسائية، أو تكتب بالحبر السري على صفحة فيلم شفاف يتم لصقها على زجاج النظارات. وهكذا أسهمت الجاسوسة الشابة لويز دو بيتيني أو «أليس دوبوا» في عملية قصف قطار خاص بالضباط الألمان بواسطة طائرة فرنسية بين بلدتيّ «سانت» و«هوبوردان». وبفضلها أيضاً قام سرب من القاذفات البريطانية بإطلاق نيران مدافعها باتجاه القطار الذي كان يقل القيصر غليوم الثاني في زيارته السرّية إلى مدينة «ليل». وممّا يثير الإعجاب أن الجاسوسة كانت تلتقط الرسائل المشفَّرة الواردة من المخابرات البريطانية في «عقر دار» العدو. إذ كانت تستخدم في الواقع جهاز استقبال سرياً تابعاً للقسيس «بينت» تمّ اعتقاله في 21 من

شهر تشرين الأول (اكتوبر) . وكان هذا الجهاز يُرسل من مدرسة تقنية واسعة في مدينة روبيه، كان الألمان قد احتلوا صفوفها وقاعاتها بشكل كامل.

ولقد اعترفت دائرة الاستخبارات البريطانية فيما بعد بأن شبكة «لويز دو بيتينيي» كانت بالتأكيد من أكثر الشبكات الجاسوسية فعالية. لكن الطوق أخذ يضيق شيئاً فشيئاً حول المرأة الشابة كلّما اتَّسعت شبكتها. وقد تعرَّضت بطاريات المدفعية الألمانية لرمايات كثيفة رهيبة، مما دفع بالألمان الغاضبين إلى تجنيد «وشاة» جدد لمراقبة السكان المدنيين وإقامة أسلاك شائكة مكهربة بين بلجيكا وهولندا. إلاّ أن لويز كانت على علم تام بهذه الإجراءات القمعية، فاحتفظت بهدوء أعصابها وواصلت اجتياز الحدود الهولندية.

في الثالث والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) من العام 1915، استُدرجت «شارلوت» إلى فخ نصبه الألمان لها، فاعتقلت في بروكسيل وأودعت سجن سان جيل. وقد أتيح لشارلوت الوقت لإنقاذ الشبكة، لكنها لم تتمكن من إنذار «أليس دوبوا» التي كانت تعمل في هولندا. وإذ اعتُقلت هذه الأخيرة بدورها في «فراوين» بالقرب من «توريني» وفي حوزتها ست بطاقات هوية مختلفة، استطاعت أن تمضغ وتَبْلَعْ بوقت كافٍ وسريع الوثيقة التي تدينها والتي كانت تخفيها في أحد مخابئها البارعة، قبل أن تودع في زنزانة تبعد بضعة أمتار عن زنزانة ماري ليوني أو «شارلوت». وبالرغم من التعذيب الذي تعرضت له خلال الاستجواب، لم تفشِ «لويز» أية معلومة أو اسم. حتى إنها أنكرت معرفتها بصديقتها ليوني وعدم التقائها بها مسبقاً حين ووجهت بها في أثناء التحقيق. إلاّ أن حيلتها وصمتها لم يمنعا الألمان من جمع ملف مفحم بالحقائق والأدلة وإثبات التواطؤ بين المرأتين.

بدأت محاكمة لويز في السادس عشر من آذار (مارس) من العام 1916. ولم يكن الرجل الذي كان يوجه المناقشات في مجلس الحرب هذا سوى الضابط الذي حكم على إيديث كافيل بالموت. لكن لويز لم يتملّكها الخوف. كان الأمر الوحيد الذي يهمها هو حماية الأعضاء الخمسين الباقين من شبكتها والذين لم يتم اعتقالهم بعد. وصدر الحكم في السابع عشر من آذار: إذ قضت المحكمة بإعدام لويز دو بيتينيي وبحبس كلٍّ من ماري ليوني فانهوت والدليل جورج دو سيفير لمدة 15 عاماً مع الأشغال الشاقة. بيد أن حاكم بلجيكا العسكري، إذ تذكر موجة الاحتجاج التي أثارها في أنحاء العالم إعدام إيديث كافيل، خفف حكم الإعدام بحق لويز إلى السجن لمدة 27 عاماً في قلعة سيغبورغ، بالقرب من مدينة بون حيث احتجز الألمان أكثر من 300 معتقلة فرنسية وبلجيكية.

وواصلت «لويز دو بيتينيي» نضالها الوطني بعزيمة لم تزعزعها حالتها الصحية التي زادها سوءاً التعب والسجن. فأخذت تزرع الفوضى والاضطرابات في داخل القلعة. ففي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام 1916، أُجبرت السجينات على القيام بعملٍ جد غريب يتلخص بتغليف قاع غطاء فولاذي بورقة رقيقة من البرونز ومعدن الألمنيوم. وقد أدركت هذه المرأة الشابة والواقعية، وبلا إبطاء، أنهم بصدد المساهمة في صنع قنابل يدوية، فطلبت من رفيقاتها الامتناع عن هذا العمل. وعندئذٍ ألقى بها الألمان في زنزانة إفرادية ضيقة وباردة ومظلمة تقريباً. وعُثر عليها ذات صباح وهي ملقاة على أرض الزنزانة بسبب التهاب رئوي. وبدا أن لويز قد تعافت عند حلول الربيع، بعد أن اعتنت بها صديقتاها ليوني ولويز توليبز، ولكن ليس لمدة طويلة، إذ بعد أن سمحت لها السلطات بإجراء نزهتها اليومية في

ساحة السجن دون استخدام ملابس صوفية، تدهورت صحتها من جديد حال مجيء فصل الشتاء، وأخذ مرض السل الرئوي يفتك بها، ولم يكن لينقذها من براثنه سوى عملية جراحية. ولقد عارض مدير السجن أن تجرى لها هذه العملية خارج أسوار السجن، في مستشفى تتوفر فيها الشروط اللازمة لنجاحها. ولذا جرت العملية في السجن، وجاءت النتائج مأسوية. إذا لم يلتئم الجرح وأخذت صحة لويز تتدهور يوماً بعد يوم. وأخيراً، وبعد تدخل البابا وملك إسبانيا، وبالرغم من المماطلات الكثيرة، تمّ نقل المرأة الشابة إلى مستشفى القديسة مريم في مدينة كولونيا. لكن الوقت كان قد فات. وتوفيت لويز دو بيتينيي، دون أن تلفظ أية كلمة، في السابع والعشرين من أيلول (سبتمبر) من العام 1918، وقبل 45 يوماً من اتفاقية وقف إطلاق النار التي جرى التوقيع عليها في يوم إطلاق سراح لويز توليز وليوني فانهوت.

دُفنت لويز في بادئ الأمر في «بيشندورف»، لكن جثمانها نقل فيما بعد إلى فرنسا في العام 1920 ليدفن في مقبرة «سان آمان لي زو»، في مسقط رأسها الذي كرّمها وخصها بجنازة رسمية. وقد كُتب على شاهدة القبر الكلمات التالية:

«لقد كرّست نفسها لبلدها طواعية خلال شهور عديدة، يحركها فقط شعور وطني نبيل لا يماثله في النبل أيُّ شعور، لكي تقدم لوطنها أهم خدمة من أجل الدفاع الوطني».

ولقد سمّاها الإنكليز «بملكة الجاسوسات»، فمنحوها بعد وفاتها «وسام الحرب» و«صليب الضابط»، في حين منحها الفرنسيون وسام «صليب جوقة الشرف» و«صليب الحرب».

أثارت شجاعة «لويز دو بيتينيي» إعجاب الألمان أنفسهم، حسب تأكيد أحد الأدباء الألمان الذي كتب يقول: «حين يكون الدافع والإلهام لمثل هذه الأعمال حبّ الوطن بلا حدود، يصبح غير هام إن كانت جرت في معسكرنا أو في معسكر العدو، ويتوجب عندئذٍ الانحناء بإجلال أمام الضحايا النبلاء الذين كبرت تضحيتهم بفضل طهارة نيتهم». فكان هذا إعجاباً مماثلاً لذاك الذي أثارته «غابرييل بوتيه»، وهي، هذه المرأة، بطلة بلجيكية أبدت مثالاً في الشجاعة والوطنية يُحتذى به. فحكم عليها أيضاً بالموت بتهمة التجسس. وأُعدمت.

لويز دي كوريااللي(*)

(Lowise)de Korielli)

(1934 ـ 1849)

«لويز دي كوريااللي» هي عميلة لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وعشيقة شارل الثاني ملك انكلترا، وهذا قد يجعلنا ننظر إلى استخدام العلاقات الجنسية على أنها عملية مجزية.

وقد نستطيع أن ندرك أهمية هذا الأسلوب من إدراك مدى الغيرة التي أثارتها لويز في قلب منافستها «نيل جوين» على الفراش الملكي، ففي أحد الأيام أرادت نيل أن تصحح خطأ جماهير الشعب في لندن، حينما أحدقوا بعربتها ظناً منهم أنها لويز، إذ أخرجت رأسها من نافذة العربة وصاحت: «لست هي أيها الشعب الطيب!! انني العشيقة البروتستانت!!.. إنني العشيقة الإنكليزية!!..».

وقد نزلت لويز دي كوريااللي بريطانيا لا لتتجسس، بل لتحثّ شارل ملك انكلترا على أن يبيع شعبه وملكه للملك الفرنسي، وكذلك لتحثّه على أن يتحول إلى الكثلكة.

وكان شارل غارقاً في الديون منذ أن عرف الحياة، ومع ذلك

(*) المرجع: صلاح نصر «الحرب الخفية...». ص172 ـ 174.

فإنه لم يعرف قيمة المال، وكان ينظر إلى خزانة بريطانيا كأنها كيس نقود أرملة لا ينفذ. فوصل بالخزينة إلى حدّ الإفلاس.

وفي الوقت الذي أدرك فيه الملك حقيقة إسرافه، ظهرت لويز دي كوريااللي على مسرح الأحداث. كان لويس الرابع عشر زوج شقيقة شارل الثاني، وكان يعرف موقفه المالي، ولما كان المال متوفراً لدى لويس، فقد ظن أن بإمكانه أن ينتفع بجزء مما يملك، ليحقق ما قد لا يستطيع أن يحققه بوسيلة أخرى.

ولهذا بعث بزوجته «هنريت» شقيقة شارل، سراً إلى انكلترا لتعرض الأمر على شقيقها، واصطحبت معها الآنسة دي كوريااللي كوصيفة لها.

بينما كان شارل ينصت إلى كلمات شقيقته، كانت عيناه تحدقان طويلاً في الوصيفة الحسناء، وكانت شقيقته تحدثه عن عرض لويس الذي يقترح فيه أن يدفع لشارل ثلاثة ملايين من الفرنكات.

وقبل أن تعود «هنريت» إلى فرنسا، كانت الوصيفة الحسناء قد عرفت الطريق إلى الفراش الملكي وتأثر بها تأثيراً واضحاً، وأخبر جواسيس لويس الرابع عشر ملكهم بما شاهدوه، وبعد شهور قليلة عادت لويز دي كوريااللي إلى لندن ثانية، وكانت هذه المرة المبعوثة الرئيسية.

كانت التعليمات التي تلقتها واضحة، فقد كان عليها أن تبذل غاية جهدها لتجعل شارل يتقبل ما عرضه عليه لويس الرابع عشر.

ولتحقيق ذلك استخدمت أنوثتها ونفوذها الطاغي حتى جعلت شارل لا يستطيع أن يرفض لها طلباً. كانت تطالبه باستمرار بالنقود، ولكنه لما كان قد حرم من كل موارده الأولى، فإنه اضطر إلى أن

يوقع معاهدة دوفر السرية التي ضمنت له منحة مئوية مقدارها ثلاثة ملايين من الفرنكات، مع وعد بمعاونة الجيش الفرنسي لو ثار عليه رعاياه الإنكليز، وفي مقابل هذا كان على شارل الثاني أن ينسحب من الحلف الثلاثي ضد فرنسا، وأن ينضم إلى لويس الرابع عشر في حملة الأراضي الواطئة، وبذلك حققت لويز دي كوريالليي الشق الأول من مهمتها.

على أن الشق الثاني الخاص بتحويل شارل إلى الكثلكة كانت تتطلب وقتاً طويلاً، ولم يكن هذا ليهمها ما دام الجزء الأكبر من الثلاثة ملايين فرنك يذهب إلى خزانتها وجيوشها، وقد نجحت فيما بعد إلى تحويل شارل إلى الكثلكة.

وقد كرهها الإنكليز كرهاً مقيتاً بسبب كثلكتها وبسبب نفوذها الطاغي على الملك. كما أنهم كانوا على يقين من أنها السبب في عقد معاهدة دوفر.

وبالرغم من أنهم كانوا يسبّونها في كل مناسبة، إلا أنه لم يكن في استطاعتهم الاعتداء عليها طوال حياة الملك، وحينما مات الملك عادت إلى فرنسا وماتت في باريس عام 1934 في الخامسة والثمانين من عمرها.

لي شوزينغ(*)
(Lee Chozing)
(-   )

هي إحدى النساء البارعات في اختصاص العمل السرّي في الصين. وفي الوقت التي اجتاح العنصر النسائي الاستخبارات السرّية الصينية، فقد عيّنت السيدة «لي شوزينغ» رئيسة لإدارة الارتباطات الدولية في جهاز الاستخبارات الصيني.

والجدير بالذكر، أن تعيين «لي شوزينغ» في هذا المنصب جاء بعد إحرازها لكثير من النجاحات في عملها السرّي، ومكافأة لها على نشاطها وتضحياتها في هذا المجال لمصلحة بلدها.

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية...». مرجع سابق. ص222.

ليديا فان هيردين(*)
(Lydia Van Hirdin)
(1958 -)

هي الجاسوسة الدبلوماسية التي قدمت الوثائق عن جنوب أفريقيا لمصر.

وقد طرحت الدوائر الدبلوماسية في العواصم الغربية تساؤلاتها حول شخصية الدبلوماسي العربي الذي فجر فضيحة تجسس تشغل اهتمام الرأي العام في حكومة جنوب أفريقيا، وتتخذ منها صحف المعارضة وحزب افريكانا في العاصمة بريتوريا مادة خصبة تلوح بها لإسقاط الحكومة.

وكانت ليديا فان هيردين السكرتيرة الثالثة في البعثة الدبلوماسية لحكومة جنوب أفريقيا لدى الأمم المتحدة، والتي تمثل رأس الرمح من فضيحة بلادها قد فصلت من وظيفتها منذ مدة عقب اكتشاف علاقتها بأحد أعضاء البعثات الدبلوماسية العربية في نيويورك، والتحقيق معها في تسريبها لمعلومات ووثائق سرية في محاولة منها للاحتفاظ بعلاقتها العاطفية مع الدبلوماسي العربي.

(*) **المرجع**: سعيد الجزائري «ملف التسعينات عن أعمال المخابرات». الجزء الثاني. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى 1997. ص519 ـ 521.

وتشير المصادر الدبلوماسية العربية في العاصمة البريطانية إلى أن نشاطات الدبلوماسية الجنوب أفريقية (32 عاماً) المتهمة بالتجسس لحساب صديقها الدبلوماسي والعضو السابق في البعثة الدبلوماسية المصرية في الأمم المتحدة، ظلت سراً مطوياً طوال علاقتها به أثناء عملهما في مكتب سفير بلادها في نيويورك، إلا أنها عندما تحولت إلى عبء على كاهل الدبلوماسي المصري، بعد أن عاد إلى القاهرة، وأخذت في ملاحقته ومطاردته بزيارتها له في بلاده ومحاولات استثمار علاقتها السابقة به، اضطر إلى إبلاغ وزارة الخارجية في حكومة بلادها وأرفق بلاغه بصورها الخليعة لتفسير سلوكها تجاهه، الأمر الذي أدى إلى استدعائها إلى عاصمة بلادها وإجراء تحقيق معها أسفر عن فصلها من الخدمة والتقاط أجهزة الإعلام والصحافة المعارضة وزعماء حزب افريكانا في بريتوريا تفاصيل الحادثة وتحويلها إلى فضيحة مثيرة يطالبون من خلالها بإسقاط الحكومة برمتها.

غير أن الدبلوماسية المتهمة ليديا فان هيردين عندما استجوبها ضباط المخابرات في حكومة جنوب أفريقيا لم تنف علاقتها العاطفية السابقة بالدبلوماسي المصري رغم أنها كانت متزوجة في تلك الفترة.

وحول أهمية الأسرار والوثائق السرية التي سربتها، كان المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية أوي ماريز في حكومة بريتوريا قد حاول في بيان رسمي التقليل من قيمتها وأهميتها، والإلحاح في البيان على أنها كانت في منصب السكرتير الثالث ويصعب توفر أي أسرار رسمية أو وثائق بين يديها. إلا أن صحيفة «بيليد» الناطقة باسم حزب افريكانا المعارض هناك أشارت إلى تفاصيل الفضيحة الدبلوماسية التي احتلت صفحاتها الأولى خلال الأيام القليلة الماضية، وقالت ان الدبلوماسية العاشقة كانت قد سلمت

إلى صديقها الدبلوماسي المصري في شهر يناير (كانون الثاني) من العام 1990، أسرار الزيارة السرية لوزير خارجية حكومة جنوب أفريقيا بيك بوتا إلى المجر ومباحثاته مع كبار المسؤولين في حكومتها حول خطط التعاون الفني والتكنولوجي بين الدولتين، في الوقت الذي ظلت فيه هذه الزيارة سراً محظورة معرفته إلا لعدد محدد من أعضاء الحكومة في جوهانسبورغ.

من ناحية أخرى كشفت تفاصيل الفضيحة الدبلوماسية في جنوب أفريقيا أسرار الحياة الخاصة لـ «ليديا فان هيردين» التي طلقت من زوجها الأول القنصل العام في نيويورك وتزوجت من ابن عمها، واتهمت باختلاس شيكات رسمية بلغت قيمتها (16) ألف جنيه ثم هربت مع الزوج الثاني خارج جنوب أفريقيا، وهو زوجها الذي خانته مع الدبلوماسي المصري وسببت الفضيحة.

ليديا كوزازوفا(*)
(Lydia Kozazova)
(-   )

هي إحدى جاسوسات المخابرات السوفياتية. وقد أنشأت ليديا كوزازوفا، في فرانكفورت ـ ألمانيا، مركزاً فخماً، ظاهره التدليك وحقيقته تجنيد عملاء جدد للمخابرات السوفياتية. حدث ذلك في الستينات.

وما إن اشتهر مركزها حتى باتت مقصد كل رجال الدولة والدبلوماسيين وضباط الجيش والأمن. ولقد سخّرت ليديا عشرات الفاتنات اللواتي يقمن بمهمة التدليك هذه مع الاستعداد لتقديم خدمات أخرى خلف كواليس مركزها.

وقع في مصيد فاتناتها العديد من الشخصيات الهامة التي كانت تسجل وتصوّر كل همساتهم وأوضاعهم المختلفة. وأصبح لدى المخابرات الروسية أرشيفاً ضخماً لابتزاز كل هؤلاء الزبائن. من أهم هؤلاء الزبائن على الإطلاق الرقيب غلين روهرر الذي كان يعمل على جهاز كشف الكذب لدى المخابرات الأميركية حيث ووجه بشريط

(*) **المرجع**: سعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». دار الجيل. بيروت 1995. ص67.

كامل عن المهام التي أداها ماخور ليديا، وتحت التهديد بإرسال الشريط لرؤسائه وافق على التعاون. وبقي خمس سنوات متعاوناً كاشفاً للمخابرات السوفياتية كل الأسماء المتعاونة والعملاء الغربيين. وكانت تلك الفترة بحق (مجزرة) حقيقية بحق عملاء المخابرات الأميركية حيث كشفت كل شبكاتهم في أوروبا الشرقية والغربية.

التجأ روهرر أخيراً، بعد كشف المخابرات الأميركية له، لتشيكوسلوفاكيا، وبدورها هربت ليديا للاتحاد السوفياتي وانقطعت أخبارهما.

ليديا مردوخ سيمونفيتش(*)
(Lydia M. Simonvitch)
(-   )

إحدى الجاسوسات اليهوديات العاملة مع الإنكليز أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث كانت تتخذ من منزل إحدى النساء اليهوديات مكاناً لتجسسها! وهذه المرأة هي أستير حاييم.

و(استير حاييم) امرأة يهودية اتخذت من منزلها داراً لملتقى العشاق في الحي المسكوبي في القدس، وكان يتردد عليها كبار الضباط الألمان والنمساويين وبعض الضباط الترك الذين يعرفون لغة هؤلاء المثقفين! ومن هؤلاء الضباط الذين كانوا يترددون على هذه الدار (البنباشي عارف حكمت بك) من ضباط أركان الحرب، و(اليوزباشي عادل بك) و(اليوزباشي جواد أدهم بك)!!

ولما كان هؤلاء يترددون دوماً على هذه الدار التي تديرها اليهودية فقد حصر رئيس الشعبة الأولى جهوده، عندما عهد إليه القائد بكشف شبكة الجاسوسية، بهم. فعرف أن الأولين يترددان عليها للمقامرة بمبالغ قليلة من المال قصد التسلية وتضييع الوقت، في حين

(*) **المرجع**: علي ملكي «الجاسوسية الصهيونية في البلاد العربية». منشورات صوت الشوف. ص137 ـ 159.

كان الأخير (جواد أدهم بك) يرتادها للاجتماع بيهودية حسناء تدعى (ليديا مردوخ سيمونفيتش)!

ورأت القيادة أن تحتال لمعرفة ما إذا كانت الأخبار تتسرب خلال اجتماعاتها بواسطة هذا القائد، فعقدت اجتماعاً قررت فيه بعض التدابير العسكرية ثم استرجعتها بعد انصراف ضباط أركان الحرب. وفعلاً اتصل جواد أدهم بالعدو، وكانت هذه الخدعة سبباً في تكبيد الإنكليز خسائر فادحة!.

وعندئذٍ اتضحت للقيادة خيانة هذا الضابط الذي اعتقل بعد يومين في دار (استير) يتشاجر مع ليديا وهي تبلغه استياء الإنكليز منه!..

ولكن هذا القائد الذي أوقف بالجرم المشهود، لم ينتظر محاكمته، بل تناول فوراً مسدسه وأفرغ منه رصاصة على صدغه كانت كافية للقضاء على حياته!.

أما (ليديا)، فقد أصرّت على الإنكار في بادئ الأمر، إلا أنها عادت فاعترفت بأنها لا تعرف من الأمر شيئاً، بل هي آلة بيد (آلتر ليفي) الذي دفعها للاتصال بالقائد لقاء جمالها ومبلغ كبير كانت تحمله إليه، وأنكرت معرفتها مكان الجاسوس الخطير!.

فاستدعاها (علي فؤاد باشا) إلى غرفته، واستجوبها، فلم تنكر أنها نمساوية، ولكنها قالت إن خدمة قومها اليهود توجب عليها أن تنسى وطنها النمساوي، ولهذا خدمت (آلتر ليفي) لا كجاسوسة إنكليزية، بل تحقيقاً لخدمة الوطن القومي اليهودي!!

ولم تزد الجاسوسة الحسناء على ذلك شيئاً، كما أنها رفضت أن تجيب على السؤال الذي وجهه إليها عن مكان اختفاء (آلتر ليفي) رغم

جميع التهديدات، فأدرك القائد عندئذٍ أن من العبث التحقيق مع هذه الفتاة بالحسنى، ولهذا أحالها إلى مقر القيادة في دمشق، ومنه أحيلت إلى الديوان الحربي العرفي!

البحث في أمر الجاسوس!

وتوالي هذه الحوادث أظهر عجز الدوائر العسكرية في هذه القضايا المتعددة، وأصبح هذا الجاسوس خطراً شديداً على سلامة الجيش، ولهذا قرر الباشا الاستنجاد بالسلطة الإدارية، فاستدعى إليه متصرف القدس وحادثه بالأمر!.

فتم الاتفاق على الاستنجاد بعارف بك إبراهيم، رئيس بوليس القدس، فخابره المتصرف، فلبى الدعوة، ولما بات في مقام المتصرفية خاطبه المتصرف قائلاً:

ـ لقد وعدت دولة الباشا بأنك ستحقق المهمة التي سيعهد إليك بها (علي فؤاد باشا)، وأنا بدوري أثق بك ثقة تامة، وهذه الثقة تجعلني أؤمن بفوزك، فالبلاد باتت محاطة بالأعداء من جميع جهاتها، وأبناؤها هنا وفي الجيش يشتغلون ضدها، ولا أريد منك أن تقاوم الناس وتعمد إلى استمالتهم إلى صفوفنا، ولكن هناك رجلاً واحداً يهدد سلامة الجيش والبلاد معاً، فأريد منك أن تقبض عليه!

ويكفي لكي أبيّن لك خطورة هذا الرجل، انه تمكن من الحصول على ثقة (أحمد جمال باشا) ثم ثقة ضباطنا والتغلغل في قلب أركان الحرب، وسرقة كل الخطط التي وضعناها للدفاع عن الجبهة!.

وقد بلغ به الأمر أنه أصبح باستطاعته معرفة ما نقوله الآن نحن

الثلاثة، وفي هذا خطر كلفنا المئات من أرواح جنودنا!.

ـ إنني على استعداد يا صاحب الدولة لما تأمرونني به.

ـ لم أفاتحك بما تقدم لأخوفك من الرجل، فأنا على اعتقاد وطيد بشجاعتك ومقدرتك، إنما رويت لك ذلك لأبين لك خطورة الرجل ومقدار الأضرار الجسيمة التي أنزلها بنا وبالجيش معاً!.

وأزيد على ذلك، إنني طاردته بواسطة عدد كبير من رجالي المخلصين إلا أنهم فشلوا كلهم في هذه المساعي ولم يصلوا إلا إلى القشور التي كلفتنا أيضاً تضحيات عديدة!.

أما أنت، فإني اعتمد عليك وحدك في تحقيق هذه المهمة!،

وعد عارف بك بتحقيق رغبات القائد والمتصرف، وانصرف كل إلى عمله.

الجاسوس في الفخ:

حدث ذلك في آذار (مارس) سنة 1918، حين عهد علي فؤاد باشا إلى عارف بك بمطاردة الجاسوس!.

وفي آخر يوم من هذا الشهر كان عارف بك راكباً جواده وذاهباً من إدارة الشرطة إلى منزله، ولم تكن توجد في ذلك الوقت عربات أو سيارات، والمسافة بين الدائرة والبيت طويلة، وكان رئيس البوليس يتنقل بين القدس ومنزله وضواحي القدس على الجواد!.

وكانت أفكار الرجل منصرفة إلى الجاسوس ليكفي القيادة شروره ودسائسه!.. ولما انتهى به المسير إلى خلف مستشفى البلدية (عند شارع يافا)، شاهد في أحد الأزقة المتفرعة من شارع طريق يافا شخصين يتقدمان نحو المنطقة وهما على بعد مئة متر منه، ولو لم ير

أحدهما يدير وجهه عندما شاهده قادماً إلى جهته ثم يمعن بالركض كأنه يحاول الفرار منه، لما آبه لهما مطلقاً!.

فاشتبه عارف بك بالرجل، وهب لمطاردته دون أن يعرف من هو، ولهذا حوّل عنان الجواد إلى جهة الزقاق فلم يجد الرجل، فترجل وراح يتغلغل في ذلك الزقاق الضيق الذي انتهى به إلى بناية قديمة مهجورة ليس لها منفذ، فأدرك (عارف بك) ان الرجل لا بد وأن يكون مختبئاً في هذه البناية، فدخل إليها، وكانت هناك حفرة مسدودة تقريباً بالحجارة والأشواك، فتطلع إلى داخلها فشاهد الرجل فأخرجه من الحفرة وفتشه فلم يجد معه شيئاً حتى ولا أوراق هويته!. ولما سأله عن أمره أجابه بلغة عربية وبلهجة أبناء القدس أنه شاب عربي يدعى (محمد الخلف) من أهالي القدس وكان في الجبهة الحربية يدافع عن الوطن، وان له والدة وزوجة وولدين جميعهم في حالة المرض الشديد، ولهذا فر من الجبهة لكي يراهم ويعينهم!..

وراح الرجل يبكي ويرجو رئيس البوليس أن يخلي سبيله لانه إذا أخذه إلى مركز القيادة عوقب ومنع من رؤية عائلته!.

ـ وكيف تمكنت من الوصول إلى هنا دون أن يشعر بك رجال الشرطة العسكرية؟!.

ـ كان لدي بعض النقود فتمكنت بواسطتها من الوصول إلى هنا، معي الآن خمس ليرات عثمانية ذهباً في إمكانك أخذها مقابل السماح لي بمتابعة سيري لرؤية عائلتي!.

ـ ماذا تقول؟!

ـ لا أعطيكم إياها كرشوة بل كهدية عن طيب خاطر!..

ـ بإمكانك الاحتفاظ بهذا المبلغ. أما الآن فسر أمامي إلى الدائرة!.

ـ مولاي رحمة بعائلتي فإن أفرادها بحالة الموت واعتقالكم إياي سيؤدي بهم حتماً إلى الموت، وأنت. . .

ـ لا فائدة من الجدال فسرْ معي!.

ـ مولاي أنا غني وبإمكاني أن أعطيك أضعاف هذا المبلغ إذا أخليت سبيلي، وليس لك إلا أن ترافقني إلى المنزل فتنال ما تريد من المال!.

ـ ولماذا فررت من وجهي عندما رأيتني قادماً؟.

ـ لأنني أعرف تمسّكك بالواجب!.

ـ إذن ما دمت تعرف هذه الحقيقة فهيا بنا.

إن الشك ساور عارف بك إبراهيم عندما رأى هذا الإلحاح، واعتقد اعتقاداً راسخاً بأن هذا الرجل ليس عربياً بل هو يهودي، وهو إذا لم يكن (آلتر ليفي) الجاسوس الذي يطارده، فهو ولا شك أحد أعوانه، ولذا تناول الأصفاد الحديدية من جيبه ووضعها في يدي الرجل، وأمسك بطرف السلسلة ثم امتطى جواده وساقه إلى مخفر البلدية، ولم يكن في المخفر ساعتئذٍ إلا اثنان من رجال الشرطة، فاستدعاهما وسلم إليهما الرجل وطلب منهما حفظه في المخفر إلى ما بعد الظهر ريثما يعود من المنزل!. ولما اقترب أحد الشرطيين من الرجل صاح قائلاً:

ـ هذا يا مولاي (آلتر ليفي) الجاسوس الخطير!.

وكانت هذه الصيحة كافية لإخافة الجاسوس الذي حاول إنكار

هويته في بادئ الأمر، إلا أن الشرطي أكد لرئيسه حقيقة هويته، ولذا أمره (عارف بك) بأن يشدد الرقابة عليه إلى ما بعد الظهر، لأن (علي فؤاد باشا) والمتصرف كانا غائبين في تلك الفترة!.

وما كاد (عارف بك) يبتعد عن مخفر الشرطة، حتى استدعى (آلتر ليفي) الشرطي الذي أفشى سرّه، وطلب إليه أن يعد له شيئاً من الطعام، ونقده ليرة عثمانية ذهباً ثمناً لهذا الطعام، فقبل الشرطي بهذه المهمة وخرج إلى أقرب مطعم مجاور للمخفر وهو يعتقد اعتقاداً تاماً أنه سيكسب حتماً ما يتبقى من الليرة الذهبية!.

ولم يتجاوز غياب الشرطي ربع الساعة، ولما عاد إلى المخفر وجد بابه مفتوحاً وزميله غير موجود! فأسرع إلى الغرفة المجاورة التي حجز فيها الجاسوس فلم يجده أيضاً، لأن الجاسوس عرف كيف يخدع الشرطي الآخر ويلوذ بالفرار!.

أرسلت الرسل إلى (عارف بك) تنبئه بالحادث، فبثّ رجاله في مختلف الجهات، وبعد الغروب اعتقلوا الشرطي الذي سبب الفرار، فقال إنه جلس بعد ذهاب زميله على باب المخفر ناظراً إلى الطريق وإذا به يشعر أن رجلاً يضربه من الوراء، فارتمى على الأرض، ولما أفاق وجد أن السجين قد فرّ فلحق به إلى الخارج وظل يطارده حتى مدينة (القدس) الداخلية، إلا أن الرجل توغل بين الأزقة واختفت آثاره!.

إلا أن هذه الإفادة الملفقة لم تقنع رئيس البوليس، خصوصاً أن الطرقات التي أشار إليها الشرطي حافلة دائماً بالأهلين والجنود، وليس من الهيّن أن تجري هذه المطاردة في الطرقات والشوارع ولا يشعر بها أحد من الناس!. ولهذا فقد ضيق عليه الخناق فاعترف له

بأنه بعد ذهاب رفيقه استدعاه السجين، وعرض عليه تهريبه مقابل 20 ليرة عثمانية ذهبية، فنقده منها أربع ليرات ومضى وإياه، إلى منزله في (المستعمرة النمساوية) حيث جاءته امرأة طاعنة بالسن ببقية المبلغ، فأخذها وأطلق الرجل!.

فتوجه رئيس البوليس على رأس قوة من رجاله إلى (المستعمرة النمساوية) وطوقها من جميع جهاتها ثم اعتقل كل من فيها، وأجريت معهم تحقيقات دقيقة، إلا أن كل هذه التحقيقات ذهب سدى، لأن أحداً من هؤلاء لم يعترف بمشاهدته للرجل أو للشرطي، كما أن المنزل الذي دلّ عليه الشرطي وجد خالياً من السكان، وقد أثبت معظم سكان المستعمرة أن الرجل لا يقطن في هذا المنزل وأنه خال منذ أكثر من عام، وعلى هذا ذهبت جميع التحريات التي أجريت في سبيل إعادة القبض على الجاسوس سدى!.

حكم بالإعدام!

وقد أثرت هذه الحادثة على (علي فؤاد باشا) تأثيراً عظيماً، فاستدعى المتصرف و (عارف بك)، وحقق معهما في الحادث، ولما تأكد له أن الشرطي خان واجبه وأخلى سبيل الجاسوس، قرر إحالته إلى الديوان الحربي العرفي لمحاكمته على الفور!

اجتمعت المحكمة العسكرية في القدس وحاكمت الشرطيين معاً فاستمعت إلى إفادة (سعيد المقدسي) عن الحادث (وسعيد هو الشرطي الذي عرف الجاسوس)، وقال إنه أوضح أمره لرئيسه أمام رفيقه (خليل عبد الكريم)، وأكد أنه (آلتر ليفي) الذي ارتكب الجرائم والذي تطارده السلطة العسكرية، وأنه لما ذهب إلى السوق ليأتي بالطعام، لفت أنظار رفيقه لزيادة المراقبة، وأيد هذه الأقوال بعض الشهود الذين رأوا

الشرطي (سعيداً) يذهب إلى السوق بمفرده!.

ثم جاء الجنود وشهدوا أنهم أوقفوا الشرطي (خليل) في ضواحي (القدس) وهو يحاول الفرار نحو معسكر الأعداء!.

وقد جاءت هذه الشهادات ضد (خليل عبد الكريم)، فحكمت عليه المحكمة بالإعدام وبرأت ساحة رفيقه، وقد نفذ حكم الإعدام في اليوم التالي!

و(عارف بك إبراهيم) الذي لم يره أحد من الناس يبكي، بكى في ذلك اليوم لرؤيته (خليل عبد الكريم) يعدم بناءً على قرار الديوان الحربي العرفي، لاعتقاده بأن هذا الشرطي لم يقدم على الخيانة إلا مدفوعاً بعامل الحاجة، وأنه لم يقدر خطورة الرجل واهتمام القيادة بأمره، فظن أنه رجل عادي، ولذا أطلق سراحه مقابل عشرين ليرة ذهبية وهي ثروة طائلة في نظره بالنسبة إلى احتياجات الناس في ذلك الوقت، وأخذ المبلغ وحاول الفرار إلى حيث الثوار العرب، وكان يستطيع كعربي أن يلتحق بهم، وأن ينقذ نفسه من العقوبة المفروضة عليه!.

ولم يخطر في باله قطعاً أن يفر نحو العدو للعمل في صفوفه كجاسوس على دولته، وهو الأمر الذي استندت إليه المحكمة في قرار إعدامه!.

هذه هي الخواطر التي سرت ببال رئيس البوليس في القدس وهو يضع الخطة الجديدة لمطاردة الجاسوس، وقد بات أشد رغبة في الإقبال على مطاردته وتوقيفه انتقاماً للدماء البريئة التي كان يتسبب في إهراقها!.

هل هذه خيانة؟

خلال هذه الحوادث اشتدت المعارك الحربية في فلسطين، وتوالت الهجمات الإنكليزية على جبهتي (غزة) و(بئر السبع)، وطلبت قيادة (جيش الصاعقة) النجدات من قيادة القوات العثمانية في سوريا وبلاد العرب، ووضع برنامج جديد للدفاع وسبل نقل القوات الاحتياطية من دمشق إلى فلسطين ومن لبنان إلى حيفا، وكانت هذه الخطة سرية، ومع هذا اتصلت بآذان (آلتر ليفي) الذي لم يغادر (القدس)! وتمكن من إيصالها إلى الإنكليز، فأرسلوا سفنهم الحربية إلى سواحل (حيفا) و(عكا)، فضربت هذه القوات وهي قادمة إلى فلسطين وضعضعت صفوفها، ثم قامت بهجمات أخرى على مناطق الحدود في الجبهة، فأضاعت على القيادة العثمانية كل خطة متخذة في هذا الشأن، وعندئذٍ أدرك (علي فؤاد باشا) أن كل هذه الضربات صادرة عن (آلتر ليفي)، فاستدعى إليه (عارف بك) وأنذره للمرة الأخيرة بضرورة العمل على إيقاف الجاسوس الصهيوني عند حدّه!.

وفي نفس الوقت ورد إشعار إلى (عارف بك) من رجاله السرّيين، يفيد أن (آلتر ليفي) شوهد في قرية (النبي صموئيل)، فأنبأ (علي فؤاد باشا) بالأمر، فأبلغه أن عليه أن يقلب هذه القرية رأساً على عقب ليتمكن من توقيف الرجل ولو اضطر إلى توقيف كل من فيها وحرقها، وزوّده بالقوة العسكرية الكافية لتنفيذ قراره هذا!.

ولليهود في المستعمرات التي أسسوها في فلسطين عيون وأرصاد لمراقبة رجال الحكومة وقواتها، وكلهم يعرفون (ليفي) ويفتحون بيوتهم له، وليس من السهل حملهم على الاعتراف بمكان وجوده!.

ولم يكن (عارف بك) يجهل هذه الحقيقة، فطوق القرية واعتقل

السكان ووضعهم تحت حراسة الجنود، إلا أنه لم يجد الجاسوس بينهم، واستجوب رجال القرية جميعاً، وعددهم أكثر من مئتين، وقادهم إلى السجن، ومع هذا فلم يتمكن من الاهتداء إلى أثر للرجل فأمره (علي فؤاد باشا) بمضاعفة الشدة، فداهم دار الجاسوس في المستعمرة ودور أقاربه وأصدقائه، وقد بلغ عدد اليهود الذين اعتقلوا بجريرة (ليفي) 1250 شخصاً لم يتقدم أحد منهم لإرشاد الحكومة إلى مقره!.

ولهذا عمد رئيس البوليس إلى الحيلة، فأخذ يتظاهر بين جماعات اليهود باستيائه من خطة (علي فؤاد باشا) الشديدة القاسية، وبتقديره لهذا الجاسوس الذي أتعبه وأتعب القيادة، ويظهر رغبته في التعرف إليه ومساعدته على النجاة!.

ولكي يؤكد نيته الطيبة هذه كان يسهل السبل لابتعاد بعض اليهود عن مطاردة الجنود لهم، كما كان يساعد بعض المشبوهين على الفرار!..

وقد جازت هذه الحيلة على القوم، وآمنوا بها، ووصلت أخبارها إلى (آلتر ليفي) الذي أراد أن يجرب (عارف بك) فأوعز إلى حماته أن تعود إلى منزلها، ولم تكن مسؤولة عن أعماله!.

واتصل نبأ عودة حماة الجاسوس برئيس البوليس، فقصدها مع نفر من البوليس السري، ولما كان قد حزر الغاية الحقيقية من عودتها إلى المنزل فإنه لم يضايقها، بل تظاهر بعطفه عليها وعلى عائلة (ليفي)، وحاول إقناعها بوجوب تسليمها الرجل أو إرشاده إلى مقره!. ولما أفهمته عدم استطاعتها ذلك لجهلها مقره، تركها وشأنها وعاد إلى مركزه، ثم أخذ يتردد عليها من وقت لآخر متظاهراً بعطفه عليها!.

وبعد عودة هذه المرأة إلى منزلها بأسبوع واحد جاءها (عارف بك)، وابتدرها قائلاً:

ـ أنا على ثقة تامة بأنه بعد هذه المطاردات العنيفة لم يبق في إمكان ليفي الخروج والابتعاد عن (القدس)، وأنا على استعداد تام لمساعدته لتحقيق غايته هذه، فاجمعيني به ترين كيف أساعده على ذلك!!

ـ ولكني لا أعرف مقره!.

ـ أنا لا أريد منك الجواب عن سؤالي هذا لأنني على ثقة تامة بأنك لن تذكري أية كلمة الآن، وإنما جئت لأبلغك أنني على استعداد تام للتفاهم وإياه على طريقة تساعده على الفرار، فبلّغيه رغبتي هذه وسأعود إليك بعد يومين لأخذ الجواب النهائي!.

ـ ولكنني لا أعرف مقره!..

فلم يجبها (عارف بك) واكتفى بتحذيرها قائلاً:

ـ يجب أن تكوني على حذر تام وأن لا تبلّغي أحداً ما دار بيننا من حديث لأن هذا الأمر يؤدي إلى إعدامي كخائن، وهو أمر لا يمكنني السكوت عليه فاضطر للانتقام منك!.

المفاوضات!

ودارت مفاوضات سرية بين (عارف بك إبراهيم) وحماة (آلتر ليفي)، كانت هذه الأخيرة تتصل خلالها بطريقة غامضة بالجاسوس الذي وافق، على ما يظهر، على أن تأتيه بعارف بك بعد أن وعدها بأن يتفق وصهرها على إخفائه أو إبعاده عن (القدس) مقابل مبلغ من المال، ولهذا جاءها في المرة الثالثة سائلاً إياها ماذا قررت، أجابته:

ـ لقد جاءني اليوم أحدهم فأوفدته إلى (آلتر) ليبلغه رغبتكم في الاجتماع به فوافق على هذا قائلاً إنه لا يخاف سواكم، وانه على استعداد تام لقبول شروطكم، فعليكم أن تذكروا المبلغ الذي تريدونه لآتيكم به فوراً!.

ـ ان هذا المبلغ سأعينه لآلتر نفسه!

ـ ولكنني مستعدة لأن أدفع لكم هذا المبلغ مقابل تعهدكم بعدم مطاردته!.

ـ ولكن بقية القوات ستظل تطارده!.

ـ لا يعبأ ببقية القوات، ولا يهمّه في الدرجة الأولى إلا أن تبتعدوا أنتم عن طريقه، ولهذا أرجو منكم أن تعينوا لي المبلغ فآتيكم به!.

ـ لا يمكنني قبول أي مبلغ إلا منه، ولهذا أرجو منك أن تقوديني إليه، وعندما اجتمع به نتفق على كل شيء! إلا أنني أعدك منذ الآن، بل أتعهد لك، بأنني سأتفق معه وسأساعده على الفرار!.

ـ إذن في إمكانكم العودة إليّ في ليلة غد فنذهب معاً لمقابلته، إذا وافق هو على ذلك، وإذا لم يوافق فلن أستطيع أن أفعل شيئاً ولو قتلتني!.

فتركها (عارف بك)، وانصرف وهو على اعتقاد وطيد أن (آلتر ليفي) سيوافق حتماً على هذه المقابلة بعد أن أقنعه بحسن نياته وبرغبته في خيانة وظيفته والاتفاق وإياه على تهريبه، ولذا استدعى إليه ثلاثة من رجاله وأبلغهم أنه ذاهب بمهمة ستوصله حتماً إلى الجاسوس الذي سيكون لهم أيضاً شرف الإسهام في توقيفه!.

وانتدب أحدهم (سليمان بشوتي) لكي يراقب منزل حماة (آلتر ليفي) منذ العشاء دون أن يفسح لأي كان معرفته أو الشعور بأنه يراقب المنزل، و(أحمد عبد السلام) أن يلحق به عن بعد، والثالث (جاد الله إبراهيم) أن يتبع الآخر، وهكذا يؤلفون سلسلة تساعد على معرفة الطريق التي سيسلكها هو وحماة الجاسوس، فيسرعون إلى مساعدته إذا اقتضى الأمر!..

وبعد أن اتخذ رئيس البوليس هذه التدابير الشديدة، توجه منفرداً إلى المستعمرة النمساوية، ودخل على حماة ليفي، فوجدها في انتظاره وقد لفت حول عنقها شالاً من الحرير وحملت بيدها فانوساً صغيراً مضاء بزيت الزيتون، وطلبت إليه أن يلحق بها إلى مقر الجاسوس!.

مخبأ الجاسوس!

للوجيه الفلسطيني (خليل بك السكاكيني) دار كبيرة في (القدس) قائمة تجاه دار الحكومة مباشرة، وهي مؤلفة من طابقين كل منهما من عدة غرف!

والأستاذ السكاكيني أديب معروف، ليس في فلسطين فحسب، بل في البلاد العربية كافة، وقد اتهم (خليل بك السكاكيني) أثناء الحركات الإصلاحية، فاعتقل مع رجالات سوريا في سنة 1915 وأرسل إلى الديوان الحربي العرفي في (عاليه)، ثم نفي إلى الأناضول مع غيره من رجالات العرب الذين سيقوا يومئذٍ إلى الديوان المذكور، ولذا كان منزله في ذاك الوقت خالياً من السكان!

ولما غادر (عارف بك إبراهيم)، رئيس البوليس في (القدس)، حي المستعمرة النمساوية برفقة حماة الجاسوس، ورأى المرأة تسير جهة دار الحكومة، تعجب من الأمر! وقد ازداد عجبه عندما رأى

المرأة تقف أمام باب دار (السكاكيني)، فسألها عن معنى ذلك، فقالت مبتسمة:

- لم يكن يخطر ببالكم أن من قلبتم الدنيا للعثور عليه يختبئ في دار ملاصقة لدار الحكومة!

- كلا لم يخطر ببالنا أبداً أن الجرأة تبلغ بالرجل إلى هذا الحد فيعمد إلى الاختباء بالقرب من دار الحكومة!.

- سترى أعظم من ذلك!

- ماذا؟!

- ستجتمع الآن (بآلتر ليفي)، وسترى منه ما يسرك، لأنه، وهو هنا، قادر على رؤية كل ما يجري في دار الحكومة وما يجري في غرفة المتصرف، مما يساعده على تتبع حركاتكم بدقة تامة، وقد تمكن، وهو في هذا المكان، من معرفة كل حركاتكم، وأنصاره الذين كانوا يأتون لزيارته في هذه المنطقة كانوا يدخلون عليه بهدوء تام لا يخشون مراقبة الحكومة أو رجالها لهم!.

- آه...

أجل، تعجب (عارف بك إبراهيم) من هذه المعلومات التي زودته بها حماة (آلتر ليفي)، إذ لم يخطر في باله أن يجد الجاسوس في هذا المكان!

وكان (خليل بك السكاكيني) في أقصى الأناضول، وقد مضى على ابتعاده عن هذه المنطقة أكثر من عامين، فكيف حصل هذا الجاسوس على مفتاح المنزل؟!.

وكيف تمكن من الإقامة فيه؟.

وكيف نقل حاجياته إلى هذا المنزل؟.

وكيف لم يشعر به رجال الشرطة والحراس وهو يقطن هذا المنزل، كما تقول حماته، منذ فترة طويلة؟!

هذه هي الأسئلة التي مرت في مخيلة (عارف بك) وهو يقترب مع المرأة من منزل (السكاكيني)، حتى إذا وصلا إلى بابه انحنت المرأة أمام حجر كبير موضوع أمام الباب، وتناولت من تحته مفتاحاً فتحت به الباب وصعدت الدرج إلى الطابق العلوي!.

ومع أن باب هذا الطابق المطل على مدخل الدار كان مغلقاً يمكن فتحه بالأكرة دون مفتاح، فإن المرأة قرعت الباب ثلاث مرات متقطعة وبصورة خاصة، ثم أدارت الأكرة وفتحته، وكانت هذه الحركة إيذاناً بقدومها!

ثم دخلت بعارف بك إلى ردهة كبيرة كانت خالية من الرياش ومثلها الأخرى مما يدل على أن المنزل خال من السكان!.

وإلى يسار الداخل تقع غرفة ذات باب واحد، فقرعته بطريقة خاصة وقالت:

ـ يا هودا!

فأجابها صوت رجل:

ـ في أرض...

ـ إسرائيل لنا!.

ـ هل من غريب؟

ـ كلا!.

ـ هل أتى «جبرائيل»؟.

ـ أتى يحمل غصن السلام!.

وبعد هذه المحاورة التي وقف (عارف بك) يستمع إليها ساكتاً، سمع حركة إدخال المفتاح في القفل، وفتح الباب وأطل منه في الظلام رأس رجل عرف رئيس البوليس أنه رأس الرجل الذي اعتقله في طريق يافا بالقدس، والذي فرّ من المخفر وكان فراره سبباً في إعدام ذلك الشرطي البائس! وقد استقبل الجاسوس رئيس البوليس بحفاوة بالغة وطلب منه الدخول!

إلا أن رئيس البوليس باغته بقوله:

ـ (آلتر ليفي)، باسم القانون، أقبض عليك، فارفع يديك!..

وهنا بوغت (ليفي)، والتفت إلى حماته وحملق فيها سائلاً إياها عن معنى ذلك!.

والمرأة نفسها لم تكن دونه دهشة واستغراباً، فالتفتت بدورها إلى (عارف بك) وسألته عن معنى ذلك وعن قسمه بأن لا يمس صهرها بأذى، فابتسم (عارف بك) وقال:

ـ إن واجبي يقضي علي بتوقيف الرجل، ولذا خدعتك للوصول إلى هدفي!.. والآن ليس على (آلتر) إلا مرافقتي إلى دار الحكومة!.

شرف عارف بك

لما أصر عارف بك على توقيفه، خيل إلى الجاسوس أنه يطمع في المال، فأراد استمالته بالمبلغ الذي يريده، فتناول من محفظته خمسة آلاف دولار وعرضها عليه مقابل تركه، إلا أن (عارف بك) رفض هذا المبلغ، فظن (آلتر ليفي) ان الرجل يرفض لأنه يطمع في

مبلغ أكبر، فعرض عليه عشرة آلاف دولار قائلاً:

ـ ليس لدي الآن إلا خمسة آلاف دولار، وسأعطيك حوالة بخمسة آلاف أخرى تقبضها من (دوتش بالستين بانك)!.

ـ قلت لك إن الواجب يقضي علي بتوقيفك!

ـ إليك هذه الحوالة بخمسة عشر ألف دولار، فيكون المجموع عشرين ألفاً من الدولارات، فأذهب وأقبض المبلغ من (القدس) أو (دمشق) أو من أي بلد أردت، فيدفع لك فوراً، وسأظل هنا تحت طلبك، وعندما يصبح المبلغ في متناول يدك عد إلى هنا وأفعل بي ما تريد!.

ـ قلت لك أن القانون يجب أن يأخذ مجراه، وعليك أن تستعد لترافقني!.

ـ كلا، لن أذهب!

ـ بل انك ستذهب مرغماً!

ـ وماذا تستفيد من أخذك إياي إلى المركز؟

ـ أكون قد قمت بواجبي!

ـ وماذا يكون مصيري أنا؟.

ـ إن مصيرك معروف، فستحال فوراً إلى المحكمة العسكرية التي لديها الأدلة على أعمالك فتحكم عليك في الحال!.

ـ وبعدئذٍ؟

ـ ينفذ بك حكم المحكمة وهو الإعدام ولا شك!.

فأطلق الرجل قهقهة عالية تجاوب صداها في أنحاء المنزل

الخالي من السكان، ثم التفت إلى (عارف بك إبراهيم) وخاطبه بلهجة الناصح قائلاً:

ـ اسمح لي بأن أخاطبك بصراحة تامة!. أنت طفل جاهل، فأنا لن أشنق ولو علقتم لي المشنقة وقدتني أنت بيدك إليها!.

ـ لا مجال للترهات فهيا اتبعني!.

ـ لقد أردت خدمتك أنت شخصياً والثروة التي أعرضها عليك ليست من عندي بل من عند الإنكليز، وهي ثروة طائلة إذا أخذتها عشت طوال حياتك في بحبوحة ويسر!

ـ أنا لا أخون وطني.

ـ ليس في عملك هذا أية خيانة، فأنت لن تؤثر في مصائر الأمور، وسترى بنفسك انني لن أشنق رغم جميع المحاولات التي ستبذلها أنت ورجال حكومتك! أما (القدس) فتستسقط بعد بضعة أيام في حوزة الإنكليز، ولا يمكنك، سواء أخليت سبيلي أو اعتقلتني، أن تغير مصير هذه البلاد، وعلى هذا أنصح لك بأن تغتنم هذه الفرصة وتتناول حصتك من المغنم، وإلا فالعاقبة ستكون وخيمة!

فرغ صبر (عارف بك إبراهيم) من هذا الحديث الذي لم يكن يتفق وخطته ومبادئه، فقطب حاجبيه وأمر الرجل بأن يستعد للذهاب معه، ثم تناول من جيبه صفارة وصفر بها إيذاناً لرجاله الذين كانوا يتعقبونه!.

ولما أدرك (آلتر ليفي) انه لم يبق هناك من سبيل لإقناع رئيس البوليس، قال له:

ـ لقد أثبت لي الآن أنك ولد طائش وغير جاهل، ولما كنت

ترفض هذه الثروة الطائلة وتفضل الواجب الواهي عليها فإني أكرر عليك الآن ما قلته لك: إنني لن أشنق، وستراني حراً طليقاً رغم أنفك، كما سترى (القدس) بعد أيام في قبضة الإنكليز، وهنا يبدأ مجد إسرائيل بتشييد الوطن القومي الصهيوني!.

ـ هذا شأنك، أما أنا فغير نادم على شيء ما دمت أقوم بواجبي بشرف.

وهنا دخل الشرطيان اللذان كان (عارف بك إبراهيم) قد عينهما لتتبع خطواته، فطلب منهما أن يكبلا الرجل والمرأة بالأصفاد، ثم تحرّى المنزل بدقة، فعثر فيه على أوراق خطيرة تثبت جاسوسية (آلتر ليفي)، كما عثر على آلة إرسال للمخابرات ركزها الرجل على سطح الدار لمخابرة مقر قيادة الأعداء، فضبط هذه الآلة التي تساعده على إثبات جريمة الجاسوسية عليه، ولما عرضها على الجاسوس قال هذا مبتسماً:

ـ لا حاجة لكل هذه الأدلة فسأعترف بكل شيء، ولكن ثق بأنه لن ينالني أي أذى!.

التحقيق مع الجاسوس الصهيوني

وقد كان توقيف الجاسوس على هذه الصورة التي بسطناها مدعاة شرف لعارف بك إبراهيم، وقد هنأه قائد القوات (علي فؤاد باشا) ومتصرف اللواء أمام جماهير الضباط والموظفين.

ثم استدعى (علي فؤاد باشا) الجاسوس إلى ديوانه، وحدثه في هذه القضية فأبى أن يجيب بأية كلمة. ولما هدده بالإعدام اكتفى بابتسامة غامضة!.

وهنا أمر الباشا الشعبة الأولى بأن تعد جميع الأوراق المتعلقة بالجاسوس مع المستندات التي تثبت جاسوسيته، لتقديمها إلى الديوان الحربي العرفي مرفقة بالتقرير الذي وضعه (عارف بك إبراهيم)، وما صادره عنده من آلة الإرسال والوثائق التي تثبت جريمته!.

ثم أصدر أمراً آخر بتشكيل الديوان الحربي العرفي لمحاكمة الرجل، وانصرف إلى إدارة دفة الأمور الحربية في الجبهة تاركاً أمر الرجل إلى القضاء العسكري وهو واثق من أن جميع الأدلة كافية لإدانة الرجل والحكم عليه بالإعدام!.

احتلال القدس

وإلى القرّاء الآن ملخص عن الموقف العسكري في فلسطين. فقد كان الإنكليز قبل اعتقال (آلتر ليفي) قد اخترقوا جبهة (فلسطين) واحتلوا المناطق الساحلية، ففي فجر 16 تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1917 هاجم العدو الجبهة العثمانية في مستعمرة (عين بيراق) اليهودية التي يدافع عنها الفيلق الثامن، وبعد معركة شديدة استمرت إلى الساعة العاشرة من ذلك النهار، تمكن العدو من اختراق الجبهة والتقدم إلى الأمام، وفي الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم نفسه كانت طلائع قوات الإنكليز قد دخلت (يافا)!.

وفي فجر 22 تشرين الثاني هاجم الإنكليز المواقع الأمامية التي أقامها الفيلق العشرون للدفاع عن (القدس)، وقد وجهوا هجومهم إلى المراكز التركية الحصينة الممتدة من بيدو إلى سوريق، فصدتهم القوات العثمانية بعد معركة دامت من الساعة السادسة مساءً إلى الثامنة صباحاً، إلا أن العدو عاد في الساعة العاشرة بقوات مضاعفة وتمكن من احتلال مرتفعات (النبي صموئيل) ونصب مدفعيته فيها وراح يمطر

المراكز العثمانية بوابل من القنابل!.

وفي الوقت نفسه هاجم العدو الجبهة الأمامية التي تدافع عنها الفرقة الرابعة والعشرون إلا أنه مني بالفشل.

ومع هذا فقد تمكنت قوات أخرى من خيالة العدو من مهاجمة (عناب) فاحتلتها بعد معركة استمرت ساعتين، ثم تقدمت إلى الأمام لتعبر نهر (قالوني)، ولكن نسف الترك للجسر فوق هذا النهر حال دون تقدمها في ذلك اليوم!

ثم توالت هجمات الإنكليز على المراكز العثمانية حتى كان ليل 8 ـ 9 كانون الأول (ديسمبر) ، فجلت قوات العثمانيين عن (القدس) إلى الشرق والشرق الشمالي من (القدس)! وظلت هذه المدينة المقدسة خالية من الإدارة العسكرية إلى قرب ظهر اليوم التالي، فدخلوها بفرقتين من المشاة الإنكليز والفرقة 47 الهندية والفرقة العاشرة الأوسترالية، وفي اليوم التالي، أي في العاشر من شهر كانون الأول سنة 1917، وصلت إلى (القدس) من (الرملة) فرقة الخيالة البريطانية، وفي 11 منه زحف قسم من هذه القوات إلى الأمام فطرد القوات العثمانية من (القدس)، واضطر قيادة القوات العثمانية العامة إلى نقل مقر القيادة إلى (نابلس)!.

مصير الجاسوس الخطير!

شملت الفوضى (القدس) يوم 8 كانون الأول سنة 1917، لأن الضربات المتوالية التي نزلت بالقوات العثمانية التابعة للجيشين الثامن والسابع المدافعين عن فلسطين، جعلت أمر المحافظة على الأمن مستحيلة، فقد هاجم الأهلون السجون وأخرجوا المسجونين منها، كما أن الفوضى ضربت أطنابها في المنطقة!.

وقد أهمل الجميع أمر الجاسوس (آلتر ليفي) إلا (عارف بك) الذي رأى أن سبب هذه الضربات هو هذا الرجل الذي كان يرقص على أشلاء الضحايا في سجنه وهو يترقب الفرص للنجاة، ورأى من الخطر أن ينسحب من (القدس) ويترك هذا الرجل في سجنه فيتمكن الإنكليز من إخلاء سبيله، ولذا توجه بعد ظهر 8 كانون الأول إلى السجن وأمره بأن يستعد للذهاب معه! وقد بوغت الرجل لرؤيته (عارف بك) بدل أن يرى أحد أنصاره الذين جاؤوا لإنقاذه، فاضطرب وأظهر جبنه، وخيل إليه أن ساعته الأخيرة قد دقت! فراح يتوسل إلى عارف بك راجياً العفو عن حياته، إلا أن رئيس البوليس أفهمه بصراحة تامة أنه لا يقصد إيذاءه لأنه ليس قاتلاً سفاكاً مثله، إلا أنه لما كان مجرماً خطيراً جاء يأخذه معه إلى مقر القوات العثمانية ليلاقي جزاءه ويحول دون ارتكابه جرائم جديدة!.

ولما أدرك (آلتر ليفي) انه سقط في قبضة الرجل، عاد يكرر نغمته السابقة محاولاً إقناعه بضرورة إخلاء سبيله لقاء ما وعده به من المال، وقال له:

ـ ستسقط (القدس) بعد بضع ساعات في حوزة القوات الإنكليزية. فهيا بنا إلى منزلي فأعطيك العشرين ألفاً من الدولارات وتصبح ثرياً!.

إلا أن (عارف بك) رفض هذا المبلغ رفضاً باتاً، وكان يستطيع أن يقبضه دون أن يقع تحت طائلة القصاص، وساق الجاسوس إلى إحدى العربات، ومضى به إلى (أريحا)!

وفي (أريحا) أبرق إلى القيادة يشعرها بما كان من أمره مع الجاسوس، فأبلغ بضرورة إحضاره إلى (عمان)، فسافر به إليها!.

إلا أن الحالة في (عمان) كانت في ذلك الوقت مضطربة، لأن سقوط (القدس) في حوزة القوات الإنكليزية، وتشديد الثوار العرب في جهات (معان) هجومهم على المواقع العثمانية، جعلا القيادة هناك تهمل أمر الجاسوس، ولا تسأل (عارف بك) عن الغاية من قدومه، ولكن هذا الأخير خابر (علي فؤاد باشا) الذي انتقل إلى (دمشق)، وطالت هذه المخابرة إلى أن ورد أمر القيادة بوجوب الإتيان به إلى دمشق!.

وفي اليوم الثالث من شهر شباط (فبراير) سنة 1918، أي بعد مشقات استغرقت زهاء شهرين، وصل (عارف بك إبراهيم) يرافقه الجاسوس إلى دمشق، وفيها اضطر أيضاً للانتظار مع الجاسوس منفردين مدة أسبوع واحد إلى أن ورده أمر رسمي من وكالة قيادة الجيش الرابع بضرورة تسليمه إلى الديوان الحربي العرفي في (دمشق)، ففعل، وسلمه بموجب الأمر وأخذ إيصالاً رسمياً من مستنطق الديوان الحربي بأنه استلم الجاسوس.

وهكذا انتهت مهمة (عارف بك)، وانصرف المستنطق إلى التحقيق مع الجاسوس، وقد طال التحقيق وأسفر عن خروج هذا الجاسوس من السجن دون أن يرسل إلى المحاكمة! وبقي أمر خروجه من السجن سراً من الأسرار!.

حقيقة ما جرى!

وقد روى (عارف بك إبراهيم)، فيما بعد، الحقيقة عن إطلاق سراح الجاسوس!..

فقد قابل، بعد أربعة أشهر من تسليمه للجاسوس، الجاسوس نفسه يدخن النارجيلة في أحد مقاهي (المرجة) بدمشق... وقد أخبره

الجاسوس الصهيوني أن محقق الديوان الحربي العرفي أطلق سراحه نظير أربعمائة ليرة ذهبية، كما قام المحقق بإتلاف كافة الوثائق، وترك (آلتر ليفي) حراً طليقاً يسرح ويمرح!.

وهكذا كان «ضمير» المحقق العثماني رخيصاً إلى درجة لا يتصورها عقل الإنسان الشريف!.

ليزا بياسيلا(*)
(Liza Biasilla)
(1983 -)

هي مساعدة روبرت كلايتون إيمز، أكبر محلّلي وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في الشرق الأوسط والذي قتل في انفجار السفارة الأميركية في بيروت بتاريخ 18 نيسان (ابريل) 1983، وقتلت ليزا بياسيلا معه. وكانت تعمل كسكرتيرة ثالثة في سلك السفارة الأميركية في بيروت، حيث أرسلها إيمز في عام 1981، عندما قرر تقوية مركز الرصد التابع للوكالة والعامل في نطاق السفارة المذكورة، مع زملائها بول ليبنغول ودوغلاس غرين، وماتوا جميعهم في الانفجار.

(*) **المرجع**: «الوطن العربي» عدد 324. من 29 نيسان إلى 5 أيار 1983. ص30. ود. صالح زهر الدين «موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم» (شخصيات). الجزء العاشر. المركز الثقافي اللبناني. بيروت 2003. ص158.

ليزي ويرتهيم(*)
(Lyzi wirthim)
(1920 -   )

هي إحدى جاسوسات المخابرات الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى. تجنّست بالجنسية الإنكليزية بزواجها من ألماني متجنس. وقد اشتغلت ليزي بالتجسس لحساب الألمان حبّاً بالمغامرة فحسب. وتلقّت في العام 1915 أمراً بالتعاون مع جاسوس ألماني يدعى بريكوف، اشتغل منذ عام 1908 في الولايات المتحدة كعازف على البيانو، ووظفه فون بابن في دائرة التجسس بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بقليل، وأرسله إلى مدرسة الجاسوسية التي كانت مدموازيل شراغمولر (الملقبة بمدموازيل دوكتور) تديرها في انفرس. وبعد أن قضى مرحلة التدريب أرسله إلى انكلترا.

ولكن ليزي ويرتهيم كانت غريبة الأطوار، وقاسى زميلها بريكوف الأمرّين من تصرفاتها الجنونية. وقد اشتكى من هذه التصرفات في رسالة بعث بها إلى رؤسائه في هولندا ووقعت في أيدي مراقبي البريد البريطانيين.

ومن غرائب مسلكها أنها كانت تسافر إلى ايكوسيا وتتجول في

(*) **المرجع**: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». مرجع سابقاً. ص101 ـ 102.

سيارة مأجورة، وتطرح أسئلة لا نهاية لها عن شؤون الدفاع. ودهش ضابطان من الأسطول البحري تعرّفا بها في أحد الفنادق، لأسئلتها المفضوحة وأخبرا رؤساءهما بأمرها، فاعتقلتها الشرطة.

ثم قبض على رفيقها فاعترف اعترافاً كاملاً بكل ما فعل هو وزميلته. وحكم على ليزي ويرتهيم أمام محكمة مدنية بالسجن عشر سنين مع الأشغال الشاقة. وسيقت إلى سجن ايلسبوري حيث جنّت بعد حين، وماتت في العام 1920 في أحد المستشفيات. أما بريكوف فقد أعدم.

ليلى مسعود(*)

(Layla Massoud)

(1936 -)

كانت إحدى عميلات جهاز الموساد وتعمل تحت اسم «سارة جولدشتاين». ولدت في اليوم التاسع من آذار (مارس) عام 1936 في حارة زاوية الأعرج المتفرعة من حارة اليهود المتفرعة من شارع الميدان بالإسكندرية.

رحلت عن مصر في عام 1953 وهي في السابعة عشر من عمرها بصحبة أمها وشقيقة صغرى وشقيق أكبر منها هو ذكي مسعود الذي عرف فيما بعد باسم «ايزاك ليفي» المتخصص في اصطياد الشباب العربي في أوروبا وتجنيده لحساب المخابرات الإسرائيلية... أما سارة، أو ليلى مسعود، فلا أحد يعرف على وجه التدقيق متى انضمت إلى جهاز الخدمة السرية في الموساد، ولقد استطاعت أن تدخل مصر عدة مرات، مرة بجواز سفر أميركي ومرات أخرى بجواز سفر فرنسي... تحمل عداء خاصاً وشديداً للمصريين، بسبب تجربة عاطفية في فجر صباها وشبابها... تزوجت مرتين، مات زوجها

(*) المرجع: صالح مرسي «الحفار» دار أبوللو للنشر والتوزيع. القاهرة ط3. 1988 ص193 - 194.

الأول وكان طياراً، عندما سقطت طائرته على الجبهة المصرية في أثناء عدوان 1956، وغرق الثاني ـ الذي كان ضابطاً بحرياً ـ مع السفينة الحربية الإسرائيلية «إيلات» أمام شواطئ بور سعيد بطوربيد مصري بعد معركة 1967... شديدة الذكاء، ذات قدرة خاصة على التخفّي، تجيد ست لغات، تبدو دائماً أصغر من سنّها بعشر سنوات على الأقل.

لا تظهر إلا في الأوقات التي تستلزم جرأة فائقة. ويصاحب ظهورها دائماً عمليات عنف غير متوقعة. ولهذا فقد كلفت بمتابعة عملية «الحفار» الذي اشترته إسرائيل للتنقيب عن البترول في سيناء من أجل إذلال الشعب المصري... لكن المخابرات المصرية تمكنت من تدميره قبل أن يصل إلى مركز عمله وكان اسمه «كينتنغ».

ليلي بيتال(*)
(Lili Bitell)
(-)

هي إحدى جاسوسات شبكة التجسس الصينية في الولايات المتحدة، واسمها الحقيقي: لي يان سونغ.

وقصة ليلي بيتال تظهر بجلاء مدى قوة وفاعلية أفتى شبكة تجسس في العالم.

بعد ظهر يوم حار من شهر حزيران (يونيو) ، تلقى بوليس نيويورك مكالمة عن جريمة. وأسرع إلى مطعم صيني متواضع يقع على الرصيف، ويدعى تشوب ـ سوي. فجابهه منظر مرعب. فبين قطع الأثاث المبعثر، والملطخ بالدم تمدد جسد امرأة صينية جميلة وبقربها جثة رجل كهل، وقد طعنا حتى الموت. وبعد تحقيق دقيق تبين أن الصينية القتيل كانت لي يان سونغ ـ مديرة مطعم تشوب ـ سوي الجميلة، والتي أكسبها جمالها الزبائن الكثر، كما حازت ثقة زبائنها بفضل أطباقها الممتازة. وكانت تعرف باسم ليلي ـ بيتال وهو اسم كان يجسد بدقة مدى جمالها الفتان.

(*) المرجع: «الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت 1988. ص353 ـ 362.

أما الرجل القتيل فكان يدعى وانغ ان ـ بينغ، وهو عمّ لها كان يساعدها في إدارة أعمالها. وكان محبوباً للطفه ودماثة خلقه من قبل الكثيرين من زبائنه حيث كان يبيعهم مأكولات صينية معلبة.

وكان تأثر الجيران بالغاً لتلك الفاجعة.

وكان من الواضح أن صاحبي المطعم فاجآ لصوصاً يسرقون المطعم. وفي سياق التحقيق قام قسم الجرائم باستشارة فرقة المخدرات، حسبما يقتضيه عرف التحريات. فقد كان من المعتقد أن ملفاتهم قد تدل على شخصيات مشبوهة كانت تتعامل مع التشوب ـ سوي بطريقة ما. وكانت فرقة مكافحة المخدرات تقوم بين الحين والحين بغارات على مطعم التشوب ـ سوي لملاحقة المخدرات الممنوعة. ولكن ذلك لم يكن غير اعتيادي. كانت جميع الأماكن على الرصيف موضوعة تحت مراقبة مكافحة المخدرات. وأثبتت جميع تلك الغارات أن المطعم كان يحترم القانون بدقة. وصنف ضباط الأمن ذوو الخبرة، التشوب ـ سوي بأنه «نظيف تماماً وفوق كل شبهة».

ولم يكن لليلي بيتال أو عمّها أي أعداء. واعتمد البوليس خطة ملاحقة الأغراض المسروقة لكي يكتشف اللصوص. ومضت أسابيع وأصبح التحقيق روتينياً. ومرت أشهر، وصارت جريمة التشوب سوي مجرد واحدة من الجرائم التي لم تحل.

وكاد ضباط التحقيق يتوصلون إلى كشف جريمة أكبر بكثير من مجرد جريمة قتل لو لم تعوزهم معرفة حقيقتين: الأولى أن المرأة القتيل لم تكن ليلي بيتال الحقيقية، وأن الرجل القتيل لم يكن عمّها. ولاكتشاف ذلك كان على الضباط أن يعودوا بالزمن إلى الوراء ستة عشر عاماً.

فمن المعروف الآن أن التشوب ـ سوي كان مقر قيادة شبكة التجسس الصينية العاملة في الولايات المتحدة لأكثر من خمسة عشر عاماً.

جائزة للإبنة الجميلة

وذات ليلة باردة من ليالي تشرين الأول (اكتوبر) لأربعين سنة خلت وداخل الحي السكني الصيني في شيكاغو، كانت زوجة هويانغ ـ سونغ المراهقة تعاني من آلام الوضع. وعندما هدأت آلامها، انحنت بابتسامة سعيدة نحو وجه مولودها الأنثى التي سميت فيما بعد لي يان ـ سونغ. ولكن الأم الشابة لم تعش طويلاً لتكحل عينيها بمرأى ليلي بيتال. فبعد بضعة أيام توفيت بتأثير حمّى الوضع.

ولم تكن حياة الترمّل سهلة بالنسبة إلى هو يان ـ سونغ، فلم يكن باستطاعته الحصول على إجازة من عمله للاعتناء بطفلته فقبل شاكراً عرض جيران كرماء للاعتناء بصغيرته لي. فقد أحب زوجته بشغف وقصر نفسه على تأمين بيت جيد لابنته ومستقبل آمن مطمئن. وكان يعمل الساعات الطوال في غسل الثياب.

ومضى الزمن، وكانت لي تكبر وجمالها يتفتح. وكان يرى هو يان ـ سونغ فيها ظل زوجته الحبيبة. ومكّنه عمله وحظه من تحسين مستوى معيشته، فأضحى الحي الشعبي البائس مجرد ذكرى غير مستحبة.

وأرهق نفسه في العمل فجمع المال بجد واشترى متجراً وبنى مصنعاً زاهراً، وكبرت ثروته. فأصبحت حياته مع ليلي على ما يرام. وكان سعيداً بولائه لزوجته المحبوبة التي طال زمن وفاتها. وبقي لديه

أمل وحيد يراوده: أن يعود وابنته إلى أرض أجداده وأن يفتش عمن تبقى من عائلته.

وعندما بلغت لي الحادية والعشرين كانت هديته لها خبر سفرهما القريب إلى الشرق الأقصى. وكان مخططه أن يقضي ثلاثة أشهر في تلك السفرة وترك أعماله في عهدة صديق له وفيّ.

وسافرا سعيدين إلى هونغ كونغ مخاطرين بإمكان عدم قدرتهما على العودة إلى مسقط رأسهما.

القتل الغامض

وبعدما قضيا أسبوعاً في هونغ كونغ أبحرا إلى الأرض الصينية، بعدما أعلما قريباً لهما بالسفر.

لكنهما ماتا قبل الوصول، ولم يعرف كيف قضيا. والشيء الوحيد الذي عرف هو أن جثتيهما التقطتا من قبل قارب صيني شيوعي مسلح، بعد غرق القارب الذي كان يقلهما.

ولم تبلغ الصين عن الحادث إلى السلطات في هونغ كونغ، مع أن جوازي السفر اللذين وجدا مع الجثتين كانا يدلان على أنهما مواطنان أميركيان.

وقررت قيادة الاستخبارات في بكين الاحتفاظ بالجوازين نظراً لإمكانية الاستفادة منهما.

وهكذا أعطيت هوية ليلي بيتال مع أوراق شخصية أخرى إلى رئيسة تجسس رائعة التدريب ومعدة للعمل في الولايات المتحدة وتدعى مين شيو ـ سين. ولكن ما أقلق مدير مراقبة التجسس في أميركا، الفروق الفيزيولوجية بين الامرأتين. فقد كانت مين تكبر ليلي

بخمس سنوات كما أنها أطول منها بسنتميترين ولكن ما طمأنه هو أن ليلي كانت لا تزال فتية وكان من المعقول أن يزيد طولها قليلاً. كما أن مين كانت تبدو أصغر من عمرها الحقيقي. وهكذا فباستطاعتها أن تمر.

ودخلت ليلي بيتال إلى الولايات المتحدة دون أية مشكلة ولكنها لم تجرؤ على الرجوع إلى شيكاغو، إذ ان مقر قيادة الاستخبارات في بكين لم يستطع الحصول على أية معلومات عن بيئة الميت يان ـ سونغ في شيكاغو. فإذا ما عادت ليلي بيتال إلى متجر والدها ربما تمكن أحد الأصدقاء المقربين أو أحد الأقارب من اكتشاف تقمّصها لشخصية ليلي بيتال. فذهبت عوضاً عن ذلك إلى نيويورك حيث استأجرت شقة متواضعة واستشارت بناء على أوامر بكين محامياً لاسترجاع ثروة والدها. وأشار المحامي عليها القيام بسفرة إلى شيكاغو لتعمل على نقل ملكية التركة إليها، ولكن ليلي بيتال عارضت الاقتراح. فادعت بأنها لا تستطيع تحمل الرجوع إلى بيتها الذي كانت تملؤه السعادة والذي يثير فيها ذكريات جارحة عن تلك المأساة القاسية.

وبينما كان المحامي مهتماً بنقل ملكية كل مجموع تركة هو سان ـ سونغ من مدخرات وأملاك إلى ابنته، رتبت بكين لليلي بيتال عملية التأقلم المعتادة. وأثناء تلك الفترة لم يكن مسموحاً لها القيام بأية نشاطات تجسسية، وبدلاً من ذلك فقد أخذت تعوّد نفسها على الحياة في نيويورك. وظلت كذلك إلى أن أنهى المحامي بيع أعمال والدها إلى وكيلة تشو هسين ـ فو. وعندما تسلمت ليلي بيتال تركتها أمنت لنفسها أموالاً شرعية تستطيع استثمارها في مطعم صيني هو تشوب ـ سوي.

الأخبار مع الطعام

وكانت بكين قد زودت ليلي بيتال بلائحة الأشخاص المرغوب في تجنيدهم: عقائديين، أو جشعين للمال، أو ضحايا ابتزاز. وركبت في التشوب ـ سوي سراً جميع المعدات التقنية اللازمة لإقامة شبكة تجسس فعالة. كما وضعت مبالغ طائلة من النقد النادر تحت تصرف ليلي بيتال. كما عيّن كمساعد لها رئيس التجسس المجرّب وانغ ان ـ تونغ متمتعاً بستار لا زيف فيه، فقد كان «عمّها».

وسرعان ما جندت ليلي بيتال عدداً كبيراً من العملاء والمخبرين ولم يكن بينهم آسيوي واحد. فقد كانت ليلي ـ بيتال من الدهاء بحيث لا تزرع شكوك السلطات بعلاقتها مع الآسيويين.

وكان قسم الغداء في مؤخر المطعم صندوق بريد مثالياً. فكان العملاء والمخبرون يدسّون نسخ الكربون القيمة والتقارير السرية داخل الفناجين والطاسات الفارغة عندما كانت ليلي بيتال تقوم بأخذ الصحون الفارغة. وكان الكونتوار الموجود في الممر حيث كان وانغ يبيع المأكولات الصينية الجاهزة ضمن علب مختومة، يؤمن الدفع للعملاء. فبعد تسليمهم الأفلام الميكرو لليلي بيتال كانوا يتوقفون عند الكونتوار لشراء المأكولات الصينية وأخذها إلى بيوتهم. وداخل العلب المختومة كانت تدس مكافآت الجواسيس أقلها ألف دولار أوراق بنكنوت من الفئات الصغيرة. واكتشف العميل السري السوفياتي الداهية في نيويورك سرّ مطعم التشوب ـ سوي. وبحكم واجبه أبلغ رؤساءه في موسكو.

وأمر بتجنيد ليلي ـ بيتال لصالح الاستخبارات السوفياتية وكلف بالمهمة الكولونيل رودولف ايفانوفيتش آبل ـ اهم عميل شبكة تجسس

روسية في الولايات المتحدة ـ وهو واحد من أقدر الجواسيس في تاريخ التجسس العالمي.

تعاون روسي ـ صيني

ولم يجد الكولونيل آبل أية صعوبة في إيجاد التعابير التي استعملها مع ليلي بيتال التي لم تجد أي حرج في خداع قومها أنفسهم. وهكذا سمح للكولونيل آبل بالاطلاع على كافة الميكروافلام والنسخ الكربونية والمستندات الحيوية الأخرى قبل أن تبعث ليلي بيتال بها عبر طرقها السرية الخاصة إلى مقر قيادة الاستخبارات في بكين الخاص بـ «الشعبة الأميركية». كما حافظ الكولونيل آبل على حصته من الاتفاق، وذلك بمدّ ليلي بيتال بالأسرار الحيوية التي كان يستلمها من عملائه.

وكانت بكين شديدة الرضى من المجالات الواسعة لشبكة ليلي بيتال، فكانت غالباً ما تمتدحها لعملها الممتاز غير شاكة على الإطلاق في أنها كانت عميلة روسية ـ صينية مزدوجة. كما أن الكولونيل آبل كان سعيداً بالتقدير الروسي لنشاطه التجسسي.

وكان لشراكة ليلي بيتال السرية مميزات أخرى. فقد ساعد الكولونيل آبل ليلي بيتال في اتباع وسيلة آمنة في اتصالاتها مع عملائها فتبعد شكوك رجال (اف بي أي) عنها فيما لو اعتقلت أو أوقفت أحد جواسيسها. وقد شدد على حماقة احتفاظها بالمعدات التجسسية التقنية، التي تدينها داخل المطعم فنقلتها ليلي بيتال من التشوب ـ سوي إلى مخبأ أمين. ولقد حمتها نصيحة الكولونيل آبل فيما بعد عندما وشى به الكولونيل رينوهايهمن وقبض عليه من قبل أف بي اي. فلم يكتشف أو يشك بأي خيط يصل بين مطعم التشوب ـ سوي وبين

شبكة الكولونيل آبل التجسسية على الإطلاق. وهكذا كان باستطاعة ليلي بيتال الاستمرار في نشاطهاتها التجسسية ذات الفعالية العالية لمصلحة قيادة الاستخبارات في بكين لمدة عشر سنوات أخرى.

ولم تخفّف ليلي بيتال من تدابير الأمان بل كانت في الواقع تزيدها باستمرار. فلم تتملك دوائر أمن الولايات المتحدة أو الـ اف بي أي أية شكوك في أي وقت من الأوقات بأن ليلي بيتال كانت رئيسة تجسس. وقد كان من الممكن لتجسسها الناجح أن يستمر لمدة ستة عشر عاماً أخرى لو لم تتعرض لنزوة رجل عجوز.

الماضي الذي لم يقتل

فذات يوم مشمس من أيار (مايو) لسنتين خلتا، دخل رجل صيني عجوز مطعم الشوب ـ سوي. وقبل جلوسه، أخذ يجيل أنظاره حوله كمن يأمل في أن يرى شخصاً يعرفه. فأسرعت ليلي بيتال نحوه لتقوم بخدمته.

وبادرها العجوز بقوله: «أنا أفتش عن لي يان ـ سونغ التي تمتلك هذا المطعم».

وحذرتها حاستها السادسة، فسألته بحذر: «ألديك أعمال معها»؟..

«أنا أدعى تشر هسين ـ فو. ولقد اشتريت أعمال والدها في شيكاغو. إنها تعرفني جيداً. فنحن أصدقاء قدامى»..

كانت لحظة حرجة بالنسبة إلى ليلي بيتال، فهذا الرجل الصيني العجوز عرف هو يان ـ سونغ وابنته معرفة جيدة، فلم تجرؤ على مخادعته. فاتخذت قراراً سريعاً آخر وقالت بنعومة: «أنا آسفة جداً.

لو سبقت عدة أيام لكنت محظوظاً، ولكن لي يان ـ سونغ سافرت في فرصة طويلة».

وسألها تشو هسين ـ فو قلقاً. «متى سترجع»؟.

«بعد شهر تقريباً ـ وربما ثلاثة حتى، ستعلمنا بذلك».

وبدت على وجه العجوز خيبة أمل «لا أستطيع البقاء في نيويورك كل هذا الوقت».

وتنبهت ليلي بيتال إلى أن زبوناً يجلس إلى طاولة قريبة كان يستمع إلى حديثهما. فالجواسيس هم دائماً حذرون ضد أي رجل من اف بي آي. كما أن ذلك الزبون كان قد بدأ يثير شكوكها. وبسرعة ألحّت على تشو هسين ـ فو في الدخول إلى مكتبها الخاص في مؤخر حجرة الطعام.

فقالت للصيني العجوز «يجب أن تكون ضيفي. سوف أطلب تحضير صحن خصوصي لنا».

ولم يكن تشو معتاداً على أن تستضيفه سيدة، فقبع محرجاً.

وأكدت له ليلي بيتال أنها «أقرب صديقة لليلي».

أعصاب الجواسيس

وكان باستطاعة ليلي بيتال محو أية شكوك راودت العجوز. وعندما ذهب كانت قد استعادت كامل ثقتها بنفسها، ولكن ليس لأجل طويل. فقد أخبرها وانغ بأن زبوناً دائم التردد على المحل ترك لها رسالة بأنه سوف يتصل بها ثانية في تلك الأمسية وذلك لمناقشة أمر خاص. وكان الرجل نفسه الذي كان يستمع إلى محادثتها مع تشو هسين ـ فو.

إن حياة الجواسيس ليست بالشيّقة، فكل حركة يقومون بها محفوفة بالخطر، ولمدة ستة عشر عاماً عاشت ليلي بيتال في حالة مستديمة من توتر الأعصاب. وكان خوفها من أن تعتقل يحوّل حتى الأعمال البريئة إلى أخطار تهدد حياتها وحريتها. وقد اعتقدت أنه بعد تلك المدة الطويلة عثر عليها رجال أف بي آي وارتعبت من أنها سوف تساق إلى مقر البوليس وسوف يحقق معها بدقة.

وذعرت ليلي بيتال وقررت أن تلجأ إلى الاختباء. وبعد ذلك تجد طريقها إلى هونغ كونغ حيث تستطيع بعد ذلك الرجوع إلى مقر قيادة الاستخبارات في بكين. وكانت تحتفظ بجواز سفر معد خصيصاً للاستعمال في الحالات الطارئة وكل المال اللازم الذي سوف تحتاج إليه. ولكنها ارتكبت غلطة مميتة. فقد تنكرت للمبادئ الواجب اتباعها والموضوعة من قبل قيادة الاستخبارات في بكين، وتجاهلت أمر الحصول على إذن رسمي بترك مركزها، وأخفقت حتى في تحذير وانغ من الخطر الداهم. وفرت بكل بساطة.

وأمرت شعبة العمليات بمطاردة شاملة لرئيسة التجسس الفارّة.

أما حقيقة مصير مين شيو ـ سين فلا يمكن التأكد منها ذلك لأن التفاصيل الدقيقة عن نهايتها محجوزة داخل ملفات شعبة العمليات في بكين. ولكن من المعروف أنه بعد ثلاثة أسابيع من اختفاء ليلي بيتال عثر عليها مع وانغ وقد طعنا حتى الموت داخل مطعم الشوب ـ سوي.

وبين الاستنتاجات أن عملاء شعبة العمليات التابعة لبكين عثروا على مخبأ ليلي بيتال، فنقلوها ثانية إلى التشوب ـ سوي وقتلوها وعمدوا إلى جعل الجريمة تبدو وكأنها اقترفت على أيدي لصوص. كما أن وانغ ان ـ بينغ كان متآمراً مع ليلي بيتال فشاركها مصيرها.

الفهرس